الفصل الثالث عشر

الحرب

آذار — : آب سنة ١٨٤٨

وبينما كان الملك شارل البرت يتأهب للحرب كان القائد النمسوى راديتسكى ينسحب رويدا رويدا على طول طرق لمبارديه للاحتماء بالقلاع الأربع وكانت الحكومة الموقتة التى تألفت فى نهاية الأيام الخمسة تحرص على حماية الأموال والأملاك وفيها ريبة من أن يكون المتطوعون جمهوريين ، وقد اشترك منهم بضع مئات فقط فى الحرب ، وبقى الآخرون يضحكون على ذقن راديتسكى . وكان الحكم النمسوى المديد قد جنى ثماره لأن عجز الرؤساء وفقدان فكرة التضحية لدى الجماهير كانا قد دمرا رجولية الشعب . أما فى بيمونته فقد قضى الملك وقته فى المجالس الحربية ، وظل مترددا من أن يخطو الخطوة الحاسمة فأضاع بذلك فرصة قطع خط الانسحاب على قوات راديتسكى . واجتاز الفيلق الأصلى البالغ من القوة الثلاثة وعشرين ألفا نهر تسينا فى ٢٥ اذار ، ولم يصل إلى (كريمونة) الا بعد مسير تسعة أيام وكان راديتسكى فى اثنائها قد انسحب إلى فيرونه بعد أن تغلب على المتطوعين فى الشرق وفى

الغرب . وحين التفت حوله الحاميات الأخرى بلغت قواته زهاء ستين الفاً ، رابطت فى القلاع الأربع (فيرونه — مانتويه — بشييرا — لجناجوا) حتى إذا ما فترت الحماسة القومية استطاعت المفرزات النمسوية أن ترسخ قدمها فى الايالات الإيطالية ، وأخذ التلاميذ من أهل فينا الذين هم أسقطوا الحكومة يتطوعون للقتال فى إيطالية ضد الحرية .

وكان الجيش النمسوى رغم كونه خليطا من ست قوميات تربطه روح الجماعة ، حتى أن أكثر الجنود الطليان لازموا الجيش طول الحرب ، وابرزوا صداقتهم وثباتهم . وكانت قوة الجيش البيمونتى تقدر بخمسة وأربعين الفاً يعسكرون على ضفتى نهر (مينجيو) ، وكانت قوات طوسكانه ونابولى وموديته نحو اثنى عشر الفاً تقف أمام مانتويه فى اقصى جانبه الأيمن ، وهناك أربعة آلاف من المتطوعين فى التيرول وكان نحو من ثلاثين الفاً من أهل روما والبندقية ومن الهاربين من الجيش النمسوى فى فنيسية أوعلى وشك الدخول فيها . وكانت المدفعية والخيالة البيمونتية تتفوقان على المدفعية النمسوية وخيالتها ، إلا أن الجيش النمسوى كان أحسن تدريباً وعدة من الجيش البيمونتى ، وكان أكثر قادة الجيش البيمونتى قليلى الخبرة والكفاية .

ظل جيش الملك عاطلا أمام فيرونه خمسة عشر يوماً ، كان المتطوعون فى أثنائها يتقدمون زرافات وكانوا مزيجاً غريباً من

كل الأعمار ومن جميع الطبقات والإيالات ، فمنهم شباب من علية القوم ، ومنهم طلاب وعمال ومن الجنود القدماء الذين اشتركوا فى معارك نابليون ، ومنهم أساتذة كهول وقرويون وغسويون هاربون من الجيش وقطاع طرق .. الخ . وكان باستطاعة الأربعة آلاف الذين يؤلفون جيش الآلية من متطوعة ميلانو وجنوه وبارمه أن يقطعوا على راديتسكى خط الانسحاب لو ساعدتهم قوة من الجيش النظامى ، بيد أن الملك شارل البرت أمرهم بالانسحاب إلى برشيه وبارغامه للانخراط فى الكتائب اللمباردية الحديثة التشكيل ، لأنه كان لا يميل إلى إضعاف قوته بإفراز جزء إلى التيرول من جهة ، ولأنه كان يخشى الاختلاطات الديبلوماسية التى قد تؤدى إلى احتلال التيرول من جهة أخرى . وظل الجيش يقضى وقته فى مناورات لا فائدة منها وبمظاهرات عابثة أمام بشيرا ومانتويه . وكان جنود طوسكانه ونابولى فى الجنوب فى (كرتانونه ومونتاناره) يراقبون قلعة مانتويه . وطلب أهل فرّاره من الملك الهجوم على المدينة ووعدوه هم بدورهم أن يثوروا ، ولما كان الموقف السياسى يتطلب نصراً عاجلا حاسماً فإن قوات بيمونته هاجمت سلسلة الروابى ، ومع أن الهجوم كان قد نجح فإن الملك المتردد أمر جنوده بإخلاء القرية التى ضبطوها والانسحاب إلى مواضعهم .

وأوشك أن يقع ما كان مازينى يتحاشاه دائماً إذ أنه من

الصعب أن يترأس أحد أمراء إيطالية الحركة القومية من دون أن يحرك غيرة الأمراء الآخرين ، ولا سيما لأن لكل عرش إيطالى مطمحاً فى الحصول على بعض الأراضى ، فلوروما مطامح فى بارمه وروفيجو ، ولنابولى فى (أنكونه) ، وتطمح طوسكانه وبيمونته فى ضم (لونجيانه وماسا كراره) . وقد يطمع شارل البرت ولئوبولد فى تاج صقلية أضف إلى هذا أن بعض العناصر المهمة فى طوسكانه وروما ونابولى كانت تخشى قبل كل شىء الالتحاق فى بيمونته ، ولمخاوفهم هذه بعض الأساس إذ أن رجال الوحدة كانوا يرغبون فى أن يروا شارل البرت ملكا على إيطالية جميعها . وكان يطلق على هؤلاء الذين اعتنقوا مذهب جيوبرتى وبالبو اسم (رجال البرت — الإلبرتينى) ، وقد انبثوا بعد نشوب الحرب فى لونجانه وموديتة وبارمه وأخذوا يعملون فيها بنشاط . وكان (جنولى) و(بيركت) فى فلورنسة و(سابافينة) فى نابولى و (ميانى) إلى حد ما فى روما يسعون لإقامة مملكة إيطالية موحدة بزعامة آل صافويه .

فلذلك أخذت طوسكانه ترتاب من جانب بيمونته لما أعلنت نابولى انضمامها إلى الاتفاق فى ١٥ — أذار . أما البابا فانه حاول بعد اعلان الحرب أن يتخلص من تبعته بتمطيط حبل المذاكرات وشاهد أن طوسكانه وبيمونته مستعدتان لها ، غير أن باريتو أجاب فوراً بأن الحرب تتقدم على كل شىء ، وعاضد الاقتراح القائل

بالاتفاق الهجومى ، فأرسل البابا فى ١٨ — نيسان رفضه البات فى الانضمام إلى الاتفاق ، وبذلك خابت آماله فى إيجاد طريقة حل سلمى فضلا عن أن غضبه من ضياع بارمه وشكوكه من مطامع بيمونته فى الرومانى ومطامع نابولى فى المارك شجعت ميله نحو اهمال القضية . والواقع أنه كان بابا قبل أن يكون وطنيا ولعله لا يبالى بالاستقلال القومى أكثر من اهتمامه باسترجاع الأراضى التى كانت البابوية تدعيها ، فلذلك نراه يبارك أعلام القطعان من جهة ويأمر من جهة أخرى قائدها الجنرال جيوفانى وراندوا بأن لا يجتاز الحدود إلا لاحتلال روفيجو التى كان يدعى أنها له ، واحتج بشدة على الأمر اليومى الذى أصدره دوراندو للجنود ذاكراً فيه أن البابا يبارك سيوفهم . بيدانه قال بعد انقضاء بضعة أيام انه ينحنى أمام الحوادث ووافق على أن تجتاز قواته نهر بو .

ومع ذلك فإن البابا لم يكن يريد أن يذكر اسمه مع اسم شارل البرت فى صبيحة الحرب الصليبية الجديدة ، وأخذت طلبات الانشقاق ترد إليه من الأساقفة الألمان فاصبح على استعداد أن يضحى بكل شىء بدلا من أن يكون سببا فى تضحية الكنيسة على هذه الصورة ، ولذلك فانه أعلن فى ٢٩ — نيسان انفصاله النهائى عن الحزب القومى ، وذكر فى رسالته العامة أن الحرب ضد النمسه تخالف مبادئ بابا يحب جميع الشعوب وجميع الأمم ويساوى بينها فى عاطفة الود ، وقد فقد بذلك نفوذه الشعبى

فأصبحت الدولة فى يومين أو ثلاثة بلا حكومة ، وطلب قسم كبير من الناس استقالة الحكومة الأولى وتعيين حكومة مؤقتة . ثم حاول البابا بعد ذلك أن يصحح خطأه فكتب إلى امبراطور النمسة يطالب إليه أن يتخلى عن الأيالات الايطالية ، ووعد شارل البرت أن يساعد جنوده فى الحركة إذا رفض الامبراطور الصلح .

ولكن حدث بعد رسالة البابا أن خانت نابولى القضية ، ولم تكن البلاد فى حال تستسيغ معه الحكم الدستورى لا سيما حين يكون الملك مخادعا والشعب خاملا فالوزارة كانت عاجزة والصحافة بدلا من أن تتصرف إلى تنوير الناس ، فقد انهمكت فى أعمال غير مشرفة . وأصيبت البلاد بهزات عنيفة حتى تجلى للدهماء أن الحرية لا تجلب الخير . أما القرويون فلم يكونوا ليهتموا بالدستور وانما كان همهم أن يتقاسموا الأملاك العامة وأن يتملكوا الأرض التى كانوا يرنون بأبصارهم إليها من القديم ، ولم يرحب المتطرفون بدستور يستند إلى تصويت ضيق ومجلس أعيان معين . وقد عبر الوزير المستقيل (ساليستى) عن آرائهم حين طالب بأن يكون حق الاقتراح شاملا وأن يكون مجلس الأعيان من المنتخبين وأن تبادر نابولى إلى الاشتراك فى الحرب ضد النمسه . ثم اضطرت الوزارة أمام الحاح الشعب إلى الاستقالة واستعد الملك للخضوع للعاصفة ، فكلف بيه بتأليف الوزارة ، بيد أن طلبات بيه كانت أشد من طلب ساليستى ، فقرر الملك أن يكافح المتطرفين واختار

لرئاسة الوزارة المؤرخ (كارلوتروبه) ، ولم ير هذا بداً من التفاهم مع الراديكاليين، وترك البت فى موضوع مجلس الأعيان والتعديلات فى الدستور إلى المجلس النيابى ، وجهر برأيه الصريح فى الاشتراك فى الحرب والانضمام إلى الحلف ، وأرسل كتيبة إلى ميدان القتال فى لمبارديه على أن يعقبها ببه بالقسم الكلى من الجيش . ولم تستطع الوزارة أن تسيطر على الموقف أمام دسائس الملك والموظفين من جهة وأمام الجمهوريين والاشتراكيين من جهة أخرى . وكان الرجعيون على أهبة الصيد فى الماء العكر لمناسبة توزيع الأرض ووعظ أحد الرهبان فى ساليرنه محبذاً الاشتراكية داعيا إليها فرأى الملك أن الفرصة قد سنحت له ، ونعلم أنه قد فقد شجاعته فى الثورة الافرنسية ومن المحتمل أنه حين أذعن للواقع إنما أراد أن يستغل الحركة ويستجلب الأحرار لاسترداد صقلية وتقسيم إيطالية بينه وبين شارل البرت ؛ ولكنه الآن بدأ يمثل دور الخائن فاغتبط حين رأى الفرصة قد سنحت لكى يعود الرجعيون إلى الحكم خوف الناس من الاشتراكية وظهور عجز الحكومة ، وقد جعلت الرسالة التى وجهها البابا الأكليروس بجانبهم ، واستعد الضباط والقرويون لتدبير مؤامرة ضد الأحرار ، وحين اقتنع الضباط بأن الأحرار يريدون ارسال الجيش إلى الشمال ليتخلصوا منهم أخذوا يتظاهرون ضد الحرب .

لقد جرت الانتخابات وظل القسم الأعظم من الشعب لا يأبه لها ، ولم يشترك فيها إلا الخمس ممن لهم حق الاقتراع ، وقد أعيد انتخاب الأحرار المعتدلين فى كل محل ، وسرعان مابدت للنواب الشكوك حين طلب إليهم خطاب العرش أن يقسموا اليمين بأن لا يغيروا الدستور الحالى ، فاعتبروا هذا التكليف نقضاً لما تعهدت به الحكومة من إصلاحات اجتماعية ووعدت أن تعرضها عليهم ، وبعد أخذ ورد وافقت الحكومة والملك على حذف تلك الصيغة من النص رسمياً ، وظل الفريقان على تباين فى الاتجاه والميول حيث تعذر التفاهم بينهما . وقد أخذ المهيجون فى كلبريه وساليرنه والبعض من الحرس الأهلى يستعدون للحرب الأهلية ، فأقيمت الموانع والمتاريس ، وأدرك أولو البصيرة من الأحرار وخامة العاقبة فحاولوا إصلاح ذات البين ، إلا أن الحرس الأهلى أطلق لنفسه العنان مما أدى إلى خوف الملك ، فحشد أمام قصره اثنى عشر ألفاً من الجنود ، فلم يبق للأحرار مندوحة عن القتال والنضال ، وزحف حرس ساليرنه الأهلى نحو العاصمة ثم أطلقت أول رصاصة ونشبت معركة عنيفة بين الأهالى والجند استمرت من الصباح حتى المساء . وكان الجنود من السويسريين قد قتلوا كل من وجدوا أمامهم ونهبوا كل ما عثروا عليه ، فالتهبت النيران وسالت الدماء غزيرة وكان الملك يحرض الجنود من شرفة قصره . وبينما كان النواب مجتمعين يتخذون القرارات طردهم الجنود من اجتماعهم واجتمع

رجال جمعية اللازارى والرهبان أمام القصر وهتفوا قائلين «فلتسقط الأمة» ، ومعنى ذلك أن جنوب إيطاليه تتنكر للقضية القومية فأرسل رسول إلى بيه يطلب إليه العودة وقد لحق به من بولونيه حين كان على وشك عبور نهر بو خلافا للأمر المعطى إليه .

وبهذا ظل الملك شارل البرت يكافح وحده عن القضية القومية ، ومع أن تخلف البابا وخيانة ملك نابولى قد حرماه من نجدات جنودهما ، فإن الموقف كان فى مصلحته ، ولم يبق أمام الذى يرغبون فى وحدة إيطاليه والذين يريدون أن يشاهدوا قوى الأمة مجتمعة تخوض غمار الحرب إلا أن يختاروا أحد أمرين ممكنين : الا لبرتيه أو الجمهورية ، وكان الجمهوريون فى هذا الميدان أقلية ، تنحصر فى بعض الجماعات من الطلاب وبعض العقلاء من عمال المدن ، وكان أكثرهم وعلى رأسهم مازينى على استعداد ليترك كل دعاية للجمهورية اذا ارتضى شارل البرت أن يتبنى بصدق وإخلاص المنهج القومى الدموقراطى ، وقد قوى أنصار ملكية شارل البرت أن صقلية قدمت تاجها إلى ابن الملك ، وأن حزباً قوياً فى الرومانى كان ينتظر إشارته للالتفاف حوله ، ومما يجدر ذكره أن القوى الشعبية كانت هى المسيطرة خارج إيطاليه ، ففى فرنسه كانت الجمهورية قوية وفى فينا كان الطلاب على وشك أن يطردوا الأمبراطور ، وفى هنغارية وبوهيمية حصل الشعب على الاستقلال الوقتى ، وفى ألمانيه أخذ مجلس الأمة يؤدى مهمته الدستورية .

ومع ذلك فإن الملك لم يكن من العباقرة الذين يتهيزون الفرص للوثوب ، وكان يدير الحركات العسكرية متمسكا بما تتطلبه قواعد الحرب المنظمة المرعية ، وقد أظهر بسلوكه مع المتطوعين عدم ثقته بالقوى الشعبية واحتقاره إياها ، وأرسل جيوبرتى إلى البابا ينشد عطفه من جديد ، وكان شبح الديبلوماسية الأوربية يقلق بال الملك دائماً ، فرفض مساعدة المتطوعين السويسريين ، وقطع العلاقات الودية التى أسسها الميلانيون مع الهنغاريين ، وأضعف شأن الحركة الإيطالية باقتصارها على القسم الشمالى من إيطاليه . وفى شمال إيطاليه تجلت قلة الثبات وروح الاستمرار ، وأعقب الوثبة القومية دور سكون فى لمبارديه . وقد تهدمت فيها دعائم الحكم النمسوى خلال أسبوع واحد ، وتجمّع عزمها ونشاطها لإملاء الفراغ الذى ولده انهيار الحكومة ؛ ولم تبذل كل جهدها فى تأليف جيش لمبارديا . وقد اتفق الجميع على ترك القضية السياسية إلى ما بعد إذ كانوا يتوقعون أن تنتهى الحرب فى مدة قصيرة ، وترجح لهم أن تترك القضايا التى تثير خلافاً كالمفاضلة بين الملكية والجمهورية والوحدة أو الاتحاد جانباً وقت الحرب حتى إذا نجحت القضية القومية قالت الأمة كلتها .

أما الملك فكان همه الوحيد أن لا يعطى أية فرصة للجمهوريين ، وأن يضم لمبارديه إلى بيمونته ، فلذلك أصرّ على ألا تترك القضية إلى ما بعد ، وأن يبت فيها حالا بتحكيم رأى الأمة بالتصويت العام

بأوسع حدوده . وكان الجمهوريون أيضاً يميلون إلى تأجيل القضية ، وحين عاد مازيني فى أوائل نيسان إلى إيطاليه وعد شارل البرت بمعاضدته ما دامت مطامحه تشمل الوحدة ، وكان يرتأى أن أول ما يجب الاهتمام به هو طرد النمسويين ، ووعد حكومة ميلانو الوقتية بمساعدته الخالصة . ومع ذلك كله فإنه كان من الصعب أن ترمى القضية الأساسية ظهراً ، وقد أخذ وثاق الأخوة بين اللمبارديين والبيمونتيين يتراخى بتأثير الفشل وخيبة الأمل . وقد استولت الشكوك على النفوس من جراء توقف الجيش البيمونتى . ولما توغل القائد النمسوى (نوجنت) فى فنيسيه زاد قلق اللمبارديين على مصير القطر الشقيق ، وراحوا يتساءلون هل هناك خيانة مدبرة كتلك التى وقعت فى (كمبو فورميو) سابقاً . وكان الجيش يزداد غضباً للإهانات التى توجهها الصحف الميلانية له فضلا عن أن الجرائد فى ميلانو وتورينو أخذت تتبادل الكلمات القارسة .

وكانت الحكومة المؤقتة نفسها على وشك أن تفقد ثقة الرأى العام ، ولا ريب فى أنها مسؤولة عن ذلك بسبب البطء فى تأليف القوة اللمبارديه مما أدى إلى تثبيط عزائم المتطوعين واضمحلال حماستهم ولاسيما وقدضعت على رأسهم قواداً مكروهين . وكان فى البلد نحو ستين ألفاً من الجنود الذين تركوا الجيش النمسوى ، فلم تتخذ التدابير لتجنيدهم ، فدخل شهر تموز ولم يبلغ

عدد المجندين أكثر من عشرة آلاف . وكان كل الأمور يدل على ضرورة البت فى قضية الانضمام إلى بيمونته ، وأنه يجب القيام بعمل يرضى أهلها ، وأن الواجب يقضى قبل كل شىء بأن تشترك لمباردیه فى الحرب بهمة كبيرة ، وهناك عوامل أخرى تدعو إلى ذلك وإن كانت قليلة الشأن ، فإنها ذات تأثير أيضاً مثل الخوف من جمهورية اشتراكية وما يسود الناس من الاحترام للملك وما يطمح إليه الناس من مشاهدة ميلانو مرة أخرى قاعدة لبلاط زاهر . وكان أكثر الموظفين ولا سيما الجمهوريون على استعداد للتخلى عن آرائهم الجمهورية إذا تم السير نحو الوحدة بشرط أن يكون الحكم دستورياً وديموقراطياً ، ضامناً للمبادئ الجمهورية الأساسية . وبعد التى واللتيا أعلنت الحكومة المؤقتة فى أوائل ايار تحكيم الرأى العام فى الانضمام أو تأجيل الأمر إلى ما بعد الحرب . وتجاه هياج أهل ميلانو اضطرت الحكومة إلى الوعد بأنه مهما كانت نتيجة التصويت فإن حق الاجتماع وحرية المطبوعات وتأليف الحرس المدنى أمور مضمونة .

وجرى التصويت فى نهاية الشهر ، فأخذ رجال الملك يعملون فى الخفاء ، وكانت الإشاعات تدور بأنه إذا جاءت نتيجة التصويت ضد الملك شارل البرت فإنه سينسحب من الحرب ، ودعى جيوبرتى إلى ميلانو ليقوم بالدعاية الملكية أمام دعاية مازينى الجمهورية . وأخذ الناس يغنون أنشودة «شارل البرت أو النمسه» فاستنكف

أكثر الجمهوريين من الاشتراك فى التصويت ، وصوّت القرويون أمام رهبانهم والجنود أمام ضباطهم وقوادهم ، واشترك فى التصويت خمسمائة وستون ألفاً ، أعنى ثمانية وأربعين بالمائة ممن لهم حق التصويت ، وكان منهم نحو سبعمائة صوت يرتأون التأجيل .

وكان إعلان الجمهورية فى فنيسيه من قبل مانين قد عقد قضية الانضمام ، فمانين جمهورى العقيدة حين رأى الفرصة سانحة أعلن الجمهورية ، وكان لا يميل إلى نصف ثورة تستلزم ثورة أخرى لإكمالها . وكان يخشى أن تحول زيادة شوكة بيمونته دون الاتحاد ، وكان يحارب كل شعور إقليمى ويدعو إلى الاتحاد ويترك شأن الوحدة الكاملة إلى مجلس الأمة الذى ينعقد فى روما . ومما لا شك فيه أن عمله قد خلق بعض الصعوبات وقوى الفكرة القائلة بأن على اللمبارديين وأهل جنوه أن يؤجلوا البت فى شكل الحكومة إلى بعد الحرب ، على أن سيطرة حكومته خارج مدينة البندقية كانت وهمية ، إذ أن نار الغيرة القديمة ضد البندقية قد التهبت . ومما زاد فى الارتباك خبر تقدم القائد النمسوى نوجنت فى منتصف نيسان وفقدان وسائط الدفاع ، فقررت المدن الواقعة على الساحل (بادويه وفيسنسه وتريفيسه) بموافقة البندقية الإجبارية أن تنضم لمبارديه وبيمونته ، وكانت ترجح الانضمام إلى لمبارديه إذ أن كل مواطن من أهل فنيسيه كان يرغب فى الانضمام إلى

لمبارديه عاجلا أو آجلا ، وذلك لأن تعلقهم بشارل البرت كان قليلا أو معدوماً ؛ ولكن مسير نوجنت السريع قد وجههم نحو الملك ليطلبوا منه العون . ولما جرى الاستفتاء العام فى ٤ — حزيران كان النمسويين قد احتلوا ثلاث ولايات من فنيسيه ، أما الولايات الأربع الأخرى وهى تريفيسه وبادويه وفيسنسه ورفيجو فأفقت بأكثرية عظيمة بضرورة الانضمام بالشروط التى اشترطتها لمبارديه ، وهى عقد مجلس تأسيسى ينتخب أعضاؤه بالاقتراع العام ويتولى وضع القانون الأساسى .

ولما نجح أنصار الانضمام فى مدن الساحل وجهوا جهودهم نحو العاصمة (البندقية) ، وأخذ البريتون ينشطون ويشترون الأنصار بالمال زاعمين أن الجمهورية تحول دون الوحدة ، وحينئذ تصبح البندقية منعزلة ، وكانت هذه المدينة بوضعها البحرى المنيع غير معرضة لهجوم العدو المباغت ، وظل مانين يعارض فى الانضمام حتى أن الحكومة رفضت بادئ الأمر الاستفتاء إلا أنها اضطرت أخيراً إلى الدعوة لانتخاب مجلس يقرر هو مصير المدينة ، وقد نجح أنصار الانضمام فى هذا الانتخاب بأكثرية ساحقة . ولما رأى مانين أنه خسر الصفقة فكر فى أن يحول دون كل انشقاق ، وصرح بما يلى : « انسوا الأحزاب فلم نعد جمهوريين ولا ملكيين وإنما نحن طليان » . وعليه فإن المجلس قد اقترح بأكثرية تكاد تكون مطلقة للانضمام الفورى إلى بيمونته ، فقدم مانين وتوماسو

على أثر ذلك استقالتهما ، ورفرفت راية بيمونته فوق القصر . وبعد أن انتهت قضية الانضمام ظهرت قضية عاصمة الدولة فى المستقبل ، أتكون ميلانو أم تورينو ، وانشق وزراء بيمونته فيما بينهم فى قبول شروط الانضمام ، وكان المحافظون يخالفونها لصبغتهم الدموقراطية ولأنهم يرون على الأخص أن الاقتراع سوف يشمل بيمونته أيضاً . فمجلس الأمة المشروط انعقاده قد يقضى على العرش نفسه وينقله من تورينو إلى ميلانو وبذلك تنهار الهيمنة البيمونتية . وانتهز (باريتو وريجى) أى الأحرار وأهل جنوه هذه الفرصة للقضاء على سيطرة تورينو وادماج بيمونته فى دولة إيطالية كبرى ، ولم يكن بالبو الرئيس الذى يستطيع أن يسير الوزارة فى مثل هذا الجو فانتقل الجدال من الوزارة إلى المجلس النيابى ، وكانت أكثرية النواب من المعتدلين ومن الطبقة الوسطى والأشراف ذوى أخلاق قوية إلا أنهم ينقصهم الاختبار . وأرادت الحكومة أن تتعهد بأنها لا تنقل العاصمة من تورينو ومعنى ذلك اللعب بالنار وإغاظة لمبارديه ورميها فى أحضان الجمهورية الافرنسية . واستطاع باريتو بمعونة (رتّازى) أن يتغلب على المحافظين ؛ فقبل المجلس شروط اللمبارديين بشرط أن لا تمس الملكية بسوء ، وقبل قانون الوحدة بأكثرية ساحقة جداً . ولكن تنفيذ كل هذه القضايا التى نظر فيها المجلس كان يتوقف على أمر واحد وهو التغلب على راديتسكى ، ولم يكن الجيش البيمونتى فى حالة يستطيع

معها التغلب على عدوه من دون أن يكون له حلفاء ، فقضية الإلحاق أغضبت فرنسه وسويسره لأنهما لا يريدان أن يريا على حدودها أى فى شمال إيطاليه دولة قوية فضلا عن أن ذلك زاد تعنت البابا و نابولى .

وبينما كان شارل البرت يجمع الآراء كان راد يتسكى يجمع الرجال ، فأمده نوجنت بأربعة عشر ألفاً من الرجال وعلى الرغم من مقاومة المتطوعة وبسالة القرويين فإن نوجنت تقدم برجاله فى ولايات فنيسيه واستولى على بعضها ، وعبثاً حاول أهل فنيسيه حث شارل البرت على إرسال المدد إليهم أو حمله على أن يأمر قوات روما التى أصبحت تحت قيادته بالتقدم ، أما قائد هذه القوات فلم يحرك ساكناً ، وتقدمت متطوعة فراره مع القرويين برئاسة رهبانهم ، واشتركت فى القتال من دون أن ينجدهم أحد . ولما رأى تقدم النمسويين واقترابهم انسحب إلى فيرونه . أما الجيش البيمونتى فبقى عاطلا أمام هذه الأحداث ، وقد حدث فى أثناء ذلك أن هجم الجيش النمسوى بخمسة وثلاثين ألفاً على جيش طوسكانة البالغ خمسة آلاف ولكن الآخر استطاع أن يقاوم النمسويين ست ساعات فى معركة عنيفة ، أظهر الجنود فيها ضروباً من البسالة والجلد مما يدعو إلى الإعجاب . ولما وصل النمسويون إلى فيرونة وكانت قوتهم تفوق حاميتها التى يقودها دوراندو ضعفين ، ارتأى هذا القائد حقنا للدماء أن يسلم نفسه

وحاميته للنمسويين . وبذلك وقعت كل ولايات فنيسيه الساحلية بيد النمسويين ، وتوسع الحرق بين اللمبارديين والبيمونتين ، وأخذ أهل فنيسيه ولمبارديه يوصمون الملك بالخيانة ولا سيما حين شاعت أخبار المباحثات السرية التي كانت تجرى بواسطة وسيط الحكومة البريطانية ، وذلك أن بالمرستون قد بذل جهده لإبعاد شارل البرت عن الحرب ، وكانت سياسته ترمى إلى عزل فرنسه من إيطاليه وإيجاد صلح تصبح فيه إيطاليه حرة .

ولما أصبحت فينا وبوهيميه ساحة للشغب من جديد حتمت الضرورة على رجال الدولة فى النمسه البت فى قضية إيطاليه فارسلت فينا مندوبا إلى لندن لتوسيط بالمرستون ، وكانت اقتراحات المندوب تتضمن منح الحكم الذاتى التام إلى لمبارديه وفنيسية ولكن بالمرستون لم يرض بهذا الحل . ولما ثارت فينا مرة ثانية فإن النمسه عدلت اقتراحاتها وقالت بمنح لمبارديه استقلالها ومنح فنيسيه حكما دستوريا حرا ، ولكن بالمرستون رفض هذه المقترحات أيضا طالبا أن تترك النمسه البلاد إلى نهر بيافه على الأقل . فلما رأت النمسه باب انكلترة موصداً فى وجهها فكرت فى التباحث مع الميلانيين مباشرة للاحتفاظ بفنيسيه ، وكان جواب الميلانيين أنهم لا ينفصلون عن شقيقتهم ، وكانت الوزارة البيمونتيه على ما يظهر ما عدا بالبولا تميل إلى التساهل .

وبينما ظلت الحكومتان حكومة ميلانو وحكومة تورينو

متمسكتين بعهودهما ، فإن الملك كان يستعد فى الخفاء لأن يضحى بفنيسيه رغم وعده بأنه لا يغمد سيفه إلا بعد أن يحرر ايطاليه . وفى أوائل شهر حزيران كان على استعداد لأن يرضى بنهر أديج حداً . وبعد مضى أشهر رفع القناع واقترح على النمسه خفية عقد معاهدة تجزئة ، وأخذت جريدة مازينى تهاجمه بعنف ، بينما كان عملاء النمسه ينسفون الأرض بنشاط ؛ أما جرائد ميلانو فكانت تصب اللعنات على الملك والجيش ، وانقلب القسم الأعظم من الأشراف فى بيمونته حين طال أمد الحرب ، وتخلف الاكليروس بعد اطلاعه على رسالة البابا العامة . أما الطبقة الوسطى فأصبحت تخشى الحركة الاشتراكية ، وزادت مشقة القرويين فى الحصول على المعيشة ، وانتهز الرجعيون الفرصة وأخذوا يبثون نغمة البابا ، أما الدمقراطيون فكانوا منصرفين إلى القضايا الاجتماعية أكثر من انصرافهم للحرب . واستقالت الوزارة وتألفت وزارة أخرى اشترك فيها جيوبرتى ، إلا أن البيمونتيين لم يتحمسوا لوزارة تمثل أقطار إيطاليه الشمالية فيكون للمبارديين وأهل جنوه الأكثرية فيها ، وأرسل جيوبرتى إلى فلورنسه وروما ليستميل البابا والدوق الكبير إلى جانب شارل البرت والقضية العامة .

ومهما كانت بلادة رجال الدولة فإنه كان فى مقدور البيمونتين الاستمرار على النضال فى عناد وثبات ، ولولا عجز القيادة لكان

من المحتمل أن ينالو الظفر ، ووردت أخيراً النجدات للجيش النمسوى فأصبح تفوقه عظيما ، أما الملك فشتت جيشه على جبهة طويلة حتى أصبح ضعيفا فى كل مكان إلى أن خسر معركة (كستوزه) التى جرت فى ٢٥ — تموز ، وانسحب باتجاه ميلانو ، وقد تألفت لجنة للأمن العام فى تلك المدينة أخذت على عاتقها تبعة الدفاع عن المدينة ، وبذلت جهوداً كبيرة فجمعت المال والذخيرة ، وجندت خلقا كبيراً من الحرس الأهلى ، وقد أظهر أهل المدينة الهمة والنشاط اللذين أظهروهما فى الأيام الخمسة ، ووصل الجيش البيمونتى إلى المدينة فى ٣ — آب ، وكان أول عمل قام به الملك أن الغى اللجنة وبذلك جلب سخط المدينة ، ولما وصل النمسويون بعدد كبير إلى المدينة وكان غاريبا لدى قد قدم نفسه ومتطوعيه للخدمة ، إلا أن الملك رفض ذلك ، وكان غاريبا لدى قد جمع ما يقارب خمسة وعشرين الفا من الرجال من برغامة وبريسيه ، وبدلا من أن يقرر الملك الدفاع عن المدينة فإنه أرسل رسله للمذاكرة مع راديتسكى حول تسليم المدينة ولما شاع هذا الخبر هاج الشعب وماج وهرع إلى القصر الذى يسكن الملك فيه محتجا على عمله هذا .

وقد أضاع الملك قواه المادية والأدبية ، وبلغ به العمر إلى درجة أمسى معها خاضعاً لكل تأثير ، مع أنه وعد بأنه يسفك آخر نقطة

من دمه للدفاع ، فقد وافق بعد بضع ساعات على نتيجة المباحثات ، وفى مساء يوم ٦ — آب رضى بتسليم المدينة ، وأعلن ذلك على الناس فاندفعت الجماهير نحو القصر ترغى وتزبد حتى أنها أطلقت النار عليه واستعدت لحرق أبوابه ، فأخلى الجيش البيمونتى المدينة فى الليل وتركها لرحمة القائد راديتسكى .

obeikandl.com

الفصل الرابع عشر

معتدلون ودموقراطيون

آيار — كانون الثانى سنة ١٨٤٨

لقد كان تأثير الانكسار فى بيمونته رائعا ، وقد فقدت الوزارة الجديدة كل نفوذ ، وأصبحت البلاد منهوكة القوى ولا أمل فى استمرار الحرب الا بمحالفة فرنسة ، وقد بوشر فعلا بالمذاكرة مع باريس ، وكان راديتسكى يهدد الحدود ، وخشى المحافظون الملكيون من قدوم جيش جمهورى من فرنسة ، فتحمل شارل البرت مسئولية العمل وخول الجنرال (سلاسكو) التوقيع على الهدنة فى ٩ آب لستة أسابيع ، ولم تقض شروط الهدنة بإخلاء (بشييره) فحسب بل اخلاء دوقية فنيسية كلها ، فما كان من أهل بيمونته الا أن رفضوا باجمعهم هذه الشروط التى تعنى التخلى عن القضية القومية إلى حين ، وقد اتفقت الأحزاب على الترحيب باللاجئين اللمبارديين والاستعداد للحركة القادمة .

وكان من الصعب على فرنسة أن تبقى تجاه هذه الأحداث مكتوفة الأيدى . ولا سيما لأن واجباتها التقليدية تقضى بالاهتمام بالعلاقات بين إيطالية والنمسة . ولما أعلنت الحرب قدمت فرنسة

مقترحات خطيرة الشأن إلى بعض الأشخاص مثل مازيني وبيه ، وطلبت إلى حكومة تورينو الموافقة على إرسال جيش ترصد عبر جبال الألب . إلا أن الشعور العام فى بيمونته كان يعارض بالإجماع كل معاونة افرنسية ، وكان مانين الرجل الوحيد الذى قدر أهمية المعونة الافرنسية، فطلب إلى فرنسة إرسال أسطولها عبر الإدرياتيك. أما الملكيون فكانوا يرتعدون خوفاً من حلف جمهورى ، وكان الجمهوريون أنفسهم يميلون إلى أن تحرز إيطالية النصر[1] ويرى أن تدخل فرنسة قد يشجع الجمهوريين فى لمبارديه وفنيسيه من جهة ويعينه على المطالبة بترك صافويه ونيس إلى فرنسة من جهة أخرى. بيد أن أكثرية اللجنة الإجرائية فى باريس كانت ضد التدخل ما لم يطلبه الطليان أنفسهم ، فلذلك أجاب نداء مانين بوعد عرقوبى ، وعلى الرغم من تعهد فرنسة بالمساعدة حين تطلب منها بصورة رسمية فإنها لم تكن على استعداد لتقديمها ، ولما خسر الطليان معركة كوستوزه ، وفقدت تورينو وميلانو كل أمل فى الظفر توجهت إيطالية نحو فرنسة ، وشرطت عليها أن تكف من كل دعاية جمهورية وعن المطالبة بترك صافويه مما سوغ لفرنسة أن تسحب كلامها ، فأصبحت المقاومة فى الحرب بعد ذلك لا معنى لها، ومع ذلك فإن بعض الوطنيين المتحمسين كانوا لا يريدون الاعتراف

(١) من دون مساعدة أجنبية . وكان لامارتين وزير الخارجية الافرنسية يحذر قيام ملكية فى شمال إيطالية .

بالانكسار . وكان (كورنتى) وهو أحد الأعضاء الفعالين فى الحكومة المؤقتة من ميلانو من الذين لا يزالون يقولون بالاستمرار فى الحرب بالقوات اللمبارديه وبالمتطوعين حوالى بريسيه ، وكان القسم الأعظم من الجمهوريين يرجعون بأسباب انخذالهم إلى الاتفاق البيمونتى ، وكان أكثر المتطوعين قد انسحب إلى سويسره وبيمونته . ولما عاد غاريبالدى من (بؤنس آيرس) فى أمريكية الجنوبية فى شهر أيار حاول عبثاً أن يحصل على رتبة فى الجيش البيمونتى ، وكان باستطاعة الملك ووزرائه أن يستغلوا صيت هذا الزعيم وأن يقيموا أهل تيرول ويقعدوهم ، إلا أنهم قابلوا طلبه ببرودة . فقدم إذ ذاك خدماته لحكومة لمبارديه ، فأناطت به قيادة المتطوعين فى برغامه . وبينما كان فى مونز يستعد للهجوم على النمسويين اتصلت به أخبار الاستسلام فانسحب مع مازينى إلى أرونه حيث طلبت إليه الحكومة البيمونتيه أن يسرح جنوده وأن يترك البلاد ، فتأثر كثيراً من هذا الطلب ومع أنه تعهد احترام الهدنة إلا أنه نشر راية مازينى فى لوبنو وأعلن الحرب الشعبية ، بيد أن راديتسكى وجه إليه قوة عظيمة اضطر أمامها إلى الانسحاب إلى سويسره . ثم أرسل النمسويون قوة إلى الرومانى واحتلوا بولونية فما كان من أهلها إلا أن هبوا للدفاع عن بلدتهم فهاجموا الجنود فى الطرقات بالخناجر وبعد معركة دامية وجهاً لوجه استمرت ساعتين أثخنوا فيهم وهزموهم .

وكان الموقف السياسى فى الامبراطورية النمسوية قد تحسن بعد أن قضى القائد (ونديشجرتس) على ثورة بوهيمية ، وبعد أن حدث اختلاف بين الهنغاريين والصربيين استغله العدو المشترك (النمسه) ، وأعلن المجلس النمسوى ولاءه للامبراطور الذى رجع إلى فينا ، أما فى إيطاليه فاستعادت نفوذها بالانتصارات الباهرة المتوالية . ما عدا فى بيمونته وفنيسيه فإن الناس فى إيطاليه قد أهملوا أمر الحرب ، وقد ظهر أن الكفاح للاستقلال هو ناحية واحدة من مظاهر النهوض فى إيطاليه ، أما الناحية الأخرى فهى السعى فى طريق التحرر الاجتماعى وقد اغتبط الأحرار المعتدلون بالإصلاحات التى تمت بالانقلاب البطىء الذى طرأ على الحكومة الدستورية على أن الجماهير كانت ما تزال تخضع لما تبقى من استبداد الشرطة ، وكانت تتشوق إلى إيجاد مالية شعبية صالحة وإلى سن قوانين عقارية جديدة وإلى تعليم أصلح كما أنها كانت تأمل أن يتم إنجاز الاصلاحات الاشتراعية فى بضعة أشهر ، وكانت تثق بأن البرلمان كفيل بالقضاء على أساس الأوتوقراطية ورفع إيطاليه إلى مصاف فرنسه وانجلتره . وقد عظم نفوذ الأندية فى جميع المدن الكبيرة ، وكان العمال العاطلون والمتطوعون فى الطبقة الدنيا لا يزالون يؤلفون عناصر شغب خطيرة . ومع ذلك فإن الدموقراطيين كانوا أكثر تعلقا بالقضية القومية من خصومهم ، وكانوا يصرحون بأن الأمراء خانوا الأمة أو انهم لم يحسنوا إدارتها

فلذلك ينبغى قبـل الاستمرار فى الحرب أن يتولى زمام الملك من يخلص له .

أما فى بيمونته فإن هدنة سلسكو قد قضت على وزارة كسالتى ، وأصبحت البلاد مدة أسبوع تدار فعلا من قبل حكومتين ، أى بينما كانت الوزارة لا تريد الاعتراف بالهدنة كان ريفل مندوب الوزارة يعمل للحصول على وساطة الدول الغربية خلافاً لأحكام الدستور ، وكان الملك قـد أمر قواته بمقاومة كل تقدم من قبل القوات الإفرنسية . وتقلد بنيلى رئاسة الوزارة فلم يقبل هو أيضاً الهدنة وقرر الاستمرار على القتال بمساعدة فرنسه أو بدونه ما لم تنل البلاد صلحاً شريفاً . وقد اتصل بالهنغاريين والسلافيين المستائين وشجع تشكيلات اللاجئين المباردين وطلب إلى غاريبا لدى أن يستعد ، وكان يأمل بأن تؤدى وساطة فرنسه وانجلتره الودية إلى الحصول على سلم يرضى الوطنيين ، وكان قرار الحكومة الإفرنسية أن لا تشترك بالحرب ما دامت النمسه لا تجتاز نهر تسّينا ، ولذلك فإنهـا لم تأبه للثمن الذى تدفعه بيمونته لقاء الحصول على السلم . أما بالمرستون فكان يظن أن النمسه ستتخلى عن لمبارديه ، ولذلك فإنه طلب إلى حكومة تورينو بأن تصرف النظر عن فنيسيه ففعلت رغم تأنيب الضمير . أما النمسـه فقد غرتها الانتصارات وعزمت على أن لا تتخلى عن أى أرض مع استعدادها لأن تمنح القطرين نوعاً من الحكم الذاتى ودستوراً ، وقد توافق

على أن تأخذ بيمونته دوقية بارمه . أما الحكومة الإفرنسية فبعد تهديداتها التى لا طائل ورائها — وافقت على شروط النمسه ، وسار بالمرستون إلى حد أبعد من تهديدات فرنسه وأمطر فينا بالموعظات ولكن النمسويين لم يتزحزحوا عن موقفهم .

وكان من تأثير فشل المباحثات أن تقوى حزب الحرب فى بيمونته ، وأخذ راديتسكى يعذب اللمبارديين باستبداد لا هوادة فيه ، ويروى عن روفل المندوب أن قال بأن مملكة إيطالية فى الشمال حلم خلاب ، وأن بيمونته يجب أن تهتم بنفسها . ونشبت فى شهر تشرين الأول ثورة ثانية فى فينا وتخلت الشعوب الامبراطورية عن نصرة الامبراطور ما عدا الخرواتيين ، فنشطت بذلك آمال بيمونته من جديد ، وكان جيشها قد زاد عدده وبلغ خمسين ألفاً ، وكانت مظاهرات الرأى العام فى الأندية والصحافة تساعد جيوبرتى ورتازى فى هجومهما الصاخب . وكان للمبارديين اللاجئين البالغ عددهم خمسة وعشرين ألفاً تأثير نافذ فى هذه الدعاية ، أما مدينة جنوة فكانت فى شبه ثورة حتى أن الملك نفسه أصبح يتشوق إلى الحرب ، فاجتمع بالمتطرفين خلسة ، وتآمر معهم على قلب وزارته وتبديلها بوزارة حرب دموقراطية يدخل فيها مانين وبروفيرو . وأخذت الحماسة للحرب تشتد يوماً فيوماً فى بيمونته ، وقد حاول بنيلى عبثاً تسكينها بتجنيد اثنى عشر ألفاً

من جديد . ولما اقترع المجلس النيابى ضده استقال فى أوائل شهر كانون الأول فاضطر الملك إلى دعوة جيوبرتى .

وكانت طوسكانه أيضاً ساحة نزاع بين المعتدلين والدموقراطيين، وما أسرع ما خفّت الحماسة للحرب فاستغل الاكليروس رسالة البابا العامة بمهارة ، أما القرويون فانصرفوا إلى موقفهم التحفظى الطبيعى خوفاً من التجنيد ومن الضرائب الثقيلة ، وكان ريدولفى قد تولى الوزارة فى شهر حزيران ، وكانت وزارته خليطاً من المعتدلين والرجعيين ولكن كفة الآخرين هى الراجحة بسبب ممارستهم شؤون الدولة مدة طويلة . ولما كان المجلس يقضى وقته فى المعاتبة ، فإن السلطة الفعلية غدت بيد الدموقراطيين ، وكانت الأحوال تدل على أن الدولة سائرة نحو الفوضى وقد انهار اتحاد الشعب عقيب وصول أخبار كوستوزه . ولما استقالت الوزارة عين الدوق الكبير (ريكاسولى) لرئاسة الوزارة ، وكان ريكاسولى هذا متهماً دون حق بأنه يرغب فى ادماج طوسكانه فى بيمونته ، من أجل ذلك رفضت الفروع المعتدلة الأخرى التفاهم معه فظلت البلاد من دون وزارة نحو ثلاثة أسابيع إلى أن استطاع (كابونى) أن يؤلف بين الجماعتين المعتدلتين . وكان كابونى هذا يمت إلى أشراف فلورنسه ويتمتع باحترام الجميع رغم تردده ، وقد وعد بالاستمرار على الحرب إذا فشلت مفاوضات الصلح ، وبذل بعض الجهود لتقوية الجيش ، وسعى لعقد اتفاق مع روما وبيمونته ،

إلا أن القلائل جعلته ينصرف إلى الأمور الداخلية ، وقد استمر القلق والخوف من احتمال احتلال النمسويين ، وقد ملأ البلاد الجند الفاقد لمعنوياته والمتطوعون المسرحون والعمال العاطلون . وأخذ الرهبان والأشراف يثيرون الفتن فى المناطق الريفية ، وصار المتطوعون والمعلمون يلقون الخطب فى الأندية لإثارة الحرب الشعبية.

وقد أصدرت الوزارة قانون القمع ، وأغلقت الأندية مما أدى إلى سكون موقت فى البلاد ما عدا ليفرونه ، وكانت الثورة قد نشبت فيها أثر شيوع أخبار كوستوزة ، وكان كابونى قد تولى الحكم بعد عدة أيام من ذلك ، فأوقف (حفازى) الذى عاد إلى البلد رغم صدور الأمر بطرده منها . فثار الشعب وقطع خطوط السكة الحديدية واستولى على مخازن السلاح ، ولما أرسل كابونى الجنود إلى ليفورنة قوبل قراره هذا بالتصفيق ، وحاول (سيبريانى) قائد الحامية أن يجرد الجمهور من السلاح الا أن الجمهور هجم على جنوده وهزمهم ، فاضطر كابونى إلى ارسال (جيرازى) ليعيد الهدوء إلى المدينة ، واستطاع هذا بسرعة أن يحمل عناصر الشعب على الطاعة ، ولم يستطع أن يحول دون إعلان الجمهورية إلا بشق الأنفس ، فقررت الوزارة أن تقضى على عش الفساد ، ودعت الحرس المدنى فى طوسكانه إلى الاجتماع فى معسكر كبير بالقرب من مدينة بيزة إلا أن القسم القليل منهم لبى الدعوة ، وكان هذا القليل أيضاً على استعداد لأن يتآخى وأهل ليفورنه بدلا من مقاتلتهم ، ففشلت بهذا

سياسة الشدة ثم عادت المدينة إلى حالتها الاعتيادية بفضل عزم جيرازى إلا أن كابونى رفض الاعتراف به وعين مونتانلى حاكما عليها ، ولم يقبل مونتانلى هذا المنصب إلا بشرط أن يمنح الشعب هدفه المحبوب ، وهو المجلس التأسيسى الدموقراطى ، فأصبح من الواضح أن وزارة دموقراطية وحدها تستطيع أن تبقى ليفورنه فى حظيرة طوسكانه ، وتعيد سلطة الحكومة إلى القسم الباقى من البلاد . فاستقال كابونى فى منتصف تشرين الأول ، وفشلت بعده جميع المحاولات لتأسيس وزارة من المعتدلين ، فطلب الدوق الكبير حينئذ إلى مونتانلى أن يؤلف الوزارة إلا أن هذا رفض أن يتولى الحكم من دون جيرازى ، ومع أن الأمير كان قليل الاستعداد لتلبية هذه الرغبة إلا أن الهياج فى ليفورنه وفى فلورنسه ونصيحة وزير انجلتره المفوض له اضطراه للاذعان . وكان الرجلان اللذان أصبحت مقدرات طوسكانه فى قبضتهما لا يشبه أولهما الثانى إلا قليلا . فمونتانلى رجلا ذكياً محبوباً لسناً صريحاً ، إلا أنه كان يجهل أمور الحكومة كل الجهل ، وكان المعتدلون يحترمونه ورجال الاكليروس يعتبرونه الرجل الذى سيحرر الكنيسة الطوسكانية من نير الحكومة . وكان التلاميذ فى بيزه والعمال فى ليفورنه يحبونه لدفاعه المديد عن الدموقراطية . أما جيرازى فكان من طينة أخرى ، ورغم أنه لم يلعب إلا دوراً صغيراً فى سياسة إيطاليه فإنه كان يعد من أقدر معاصريه ، وقد تشبع بآراء فولتير وبايرن ،

وجدّ كثيراً فى اكتساب قوته ، وعركه الدهر إذ دخل السجن ثلاث مرات قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ، وقضى كل حياته فى جدال مع الهيئة الاجتماعية ، وكان مقداماً عنوداً . وكانت الغاية التى يتوخاها فى قصصه ايقاظ إيطاليه ، وكان يحتقر المضطهِد والمضطهَد . ويقول « ليست الحياة سكوناً » . وقد هدأ النجاح الذى ناله فى آخر أيامه من طبعه وجعله يكره دائماً ومن صميم قلبه الجدل السياسى .

أما فى روما فقد كان سقوط المعتدلين فظيعاً . وفى الأزمة التى تلت نشر الرسالة العامة اضطر الحزب الدموقراطى البابا إلى إناطة رئاسة الوزارة برئيس الحزب ميانتى ، وقد شرط هذا لقبوله رئاسة الوزارة أن يتولى وزارة الخارجية أحد العلمانيين ، كان ميانتى عضواً فى الحكومة المؤقتة التى تألفت فى بولونية فى ثورة سنة ١٨٣١ ، ولما كان متغيباً فى فرنسه برز كشاعر ولاهوتى ، ولما عاد إلى إيطاليه سنة ١٨٤٨ اشتهر بين الناس كخطيب وصحفى ، وقد أصبح المنهاج الذى وضعه فى الإصلاح الاجتماعى المنهاج المقبول فى الأوساط الرديكاليه . وكان يرغب فى أن يحتفظ البابا بالسلطة الزمنية ، ولكى يبقى نفوذ البابا الدينى خالصاً سالماً وجب على البابا بأن لا يشترك فى مسئولية الحكم ، وعليه أن يقبل بالمبدأ الانكليزى القائل « الملك يملك ولا يحكم » . ثم إنه كان من دعاة الاستقلال ومن المتحمسين ، ويود أن تساعد روما الحرب القومية

بكل ما يمكن ؛ وأن لا يقبل المفاوضة مع النمسه ما دام لها جنود فى إيطاليه ، كما أنه كان من أنصار الاتحاد وقد اتهمه خصومه بأنه يرغب فى إلحاق الرومانى بپيمونته .

عنى مميانتى قبل كل شىء بإصلاح الحكومة المحلية والمصالح المدنية ، ثم انصرف إلى الأمور الاجتماعية وعمل على تأسيس وزارة للإسعاف العام ومهمتها حماية البؤساء وتعليمهم ، ورأى أن المصلحة فيما يخص التعليم تقضى فى تلك البرهة التساهل مع الإكليروس وذلك بالسماح لفتح المدارس الحرة على أن يتولى الرهبان دراسة الدين فيها . وكان منهجه الاجتماعى يتضمن المساواة الاجتماعية التامة وحرية التجارة وحرية التملك وفرض ضريبة متزايدة بنسبة الدخل والعناية بالسكك الحديدية وخطوط البرق والاسعاف والصحة العامة ، وكان القيام بهذه الإصلاحات صعبا بين بلاط خصم لها وشعب نفذ صبره ، ولو كان صلباً لاستطاع أن يحمل البابا على التساهل إلا أنه كان يسعى لجلب رضاء البابا . ومن الأمور التى لا يمكن للبلاط البابوى أن يسمح لها أن تترك المخابرة مع سفراء البابا بيد وزير علمانى ، لذلك لم يف البابا بوعده لوزيره الأول وعين لوزارة الخارجية كردينالا . وقد أذعن مميانتى لهذا آملا بأن يظفر بموافقة البابا على منهجه الاصلاحى .

على أن قضية الحرب كانت موضوع جدل عنيف بينه وبين البابا حين لم يكن البابا فاقداً استعداد العطف على الحماسة القومية ،

ولما خرق النمسويون حرمة أراضيه فى أواخر شهر جزيران ، اعتزم إعلان الحرب . ولو قبل باريتو الحلف لتشجع البابا وأمر ميانتى بتعبئة الجيش ، إلا أن باريتو رفض اقتراح الحلف مما جعله مرتاباً من مطامح بيمونته أكثر من قبل ، وكان يشعر بأن دخول بابا فى الحرب أمر فظيع ، وحاول ميانتى عبثا حمله على قبول المبدأ القومى . وكان بيوس لا يريد أن يقبل نظرية ميانتى الآتية : « إن البارى تعالى قد قدر أن تعيش الأمم مستقلة بعضها عن بعض بسبب اختلاف لغاتها وجنسياتها وعاداتها » وقد أضاع المعتدلون نفوذهم كقوة سياسية ، وقد أدت الرسالة العامة بإضعافها لنفوذ البابا المعتدل فى حركة الحرية إلى تقوية الدموقراطيين ، ومع أن القسم الأعظم من الدموقراطيين كان يسير وراء ميانتى إلا أنه كانت توجد فئة متطرفة تسعى لإقامة جمهورية تكون عبارة عن حكومة موقتة . وكان الانفصاليون فى الرومانى أقوياء ؛ لذلك لم يستطع ميانتى أن يقوم بالاصلاحات التى عزم عليها بسبب العراقيل التى وضعت فى طريقه ، وشعر أخيراً أنه أضاع مركزه . وكانت أخبار الهزيمة فى كوستوزه ضربة قاضية عليه .

وتولى الحكم بعده فايرى وهو من رجال المؤامرة القدماء شريف النفس وطنى وكان طاعنا بالسن ، وقد اتخذت الوزارة الجديدة خطة ميانتى بشأن الحرب إلا أنها لم تستطع أن تحمى بولونيه من عدوان النمسويين وعدوان عصابة المجرمين بعد انسحابهم

منها ، ثم قطع البابا آخر علاقته بالحكم الدستورى وأجل المجلس النيابى ودعا بيمونته ونابولى وفرنسه إلى حمايته من النمسه ومن رعاياه ، ولما لم يثق بفايرى اضطره للاستقالة وعين بدله سفير فرنسه السابق فى روما (بلليجرينو روسى) .

وكان روسى محامياً وأستاذاً فى جامعة بولونيه ، اشترك فى حركة موراث ، ونفى إلى سويسره ثم أصبح بعد ذلك أستاذاً فى كلية فرنسه فى باريس ، وكانت دروسه جلبت انتباه (جيزو) رئيس وزراء فرنسه فأرسله سفيراً إلى روما سنة ١٨٤٥ المفاوضة بشأن إلغاء المؤسسات اليسوعية . وكان روسى قومياً ومن رجال الإصلاح ويشارك الأحرار فى كثير من وجهات نظرهم ، وكان يساير الحركة الإيطالية ما دامت ترمى إلى الاستقلال . وكان يشعر بضرورة وجود حكومة جريئة قوية فى روما تضرب بشدة عناصر السوء فى الدولة ، واهتم بالقضية القومية اهتمام مميانتى . وكان قد نشر مؤلفاً فى الصيف نصح فيه البابا بخوض غمار الحرب وحينما تولى منصب الرئاسة وعد بتجديد السعى فى قضية الحلف واقترح تقوية الجيش . بيد أنه كان يشارك البابا فى شكوكه المتأصلة ضد بيمونته وادى اندفاعه فى مدح البابا إلى تحفظ تورينو ففشلت مفاوضاته مع بيمونته بشأن الحلف .

وكانت سياسته الداخلية ترمى إلى الإصلاح المعقول فى الأمور الاقتصادية والإدارية ، وقد أظهر عزماً قوياً فى إصلاح الإدارة

المتفسخة وفى الخطوط البرقية وسعى لإنجاز مشاريع السكك الحديدية ، وكان يحتقر المحاورات الصاخبة والمناقشات على السنة السياسيين فى أروقة المجالس النيابى . وقد هدد روما بالاحتلال العسكرى وآلمت تصرفاته غريبا لدى وقد أسلم اللاجئين السياسيين إلى فرديناند ملك نابولى ، وكثر خصومه حتى اعتبره الألبريتون من أعداء الشعب ، ونقم منه الموظفون الذين ساقهم إلى الشغل والإكليروس الذى زاد ضريبته والأشقياء الذين أخمد حركتهم واضطرهم إلى الإخلاد إلى السكينة ، وهكذا أخذت تصرفات الاحتجاج تزداد ضده يوماً فيوماً مما أدى إلى انهياره .

الفصل الخامس عشر

الدموقراطيون فى الحكم

تشرين الثانى — ١٨٤٨ : شباط — ١٨٤٩

أظهرت الحوادث استحالة الوقوف أمام التيار الدموقراطى الجارف ، ولم يستطع روسى أن يوطد دعائم الهدوء بالقوة ، فالشعب كان لا يفتأ يطالب بالحرب ، وقد شاع أن البعض كان يعد عدة مؤامرة لإقامة جمهورية . وفى بولونيه نظم الدمقراطيون صفوفهم بقيادة جفازى وكان زوكى قد جردهم من السلاح لارتيابه بعلاقتهم بغاريبالدى ؛ أما رجال الاكليروس فكانوا يرجون المعونة الأجنبية ، وأما المتطرفون فكانوا يناظلون للحصول على مجلس تأسيسى يقضى إلى انهيار نصف عروش إيطاليه أو جميعها . فاضطر رومى أمام هذه الحوادث أن يجلب قوات إلى روما . وكان زوكى قد أرسل كتاباً إلى روكى يقترح عليه فيه بتشتيت شمل وطنى الرومانى بالقوة أو القضاء على كتيبة غاريبالدى بالرصاص . إن هذا الكتاب وقع فى أيدى البعض ونشر فأحدث تأثيراً سيئاً ، وبينما كان روسى فى طريقه إلى المجلس النيابى هدده الجمهور حتى إذا ما صعد السلم اغتالته يد مجهولة . فوجه الرأى العام التهمة إلى

الدمقراطيين ، إلا أن هؤلاء أسندوها إلى اليسوعيين الذين اعتادوا مثل هذه الاغتيالات .

وتلقت روما هذا الخبر بدون اكتراث . ولم يترك روسى أصدقاء فلذلك رأى الدموقراطيون والرجعيون فى موته فرصة مناسبة لينشط كل فريق كل منهم فى العمل لمبادئهم ، بيد أن الدمقراطيين كانوا أسرع إلى الاستفادة من الحادث ذلك أن المجلس النيابى تخلى عملياً عن العمل ، وترك روما فى قبضة نادى الشعب وهذا استطاع أن يعيد النظام فى الطرقات تماماً . وتلا ذلك قيام مظاهرة عظيمة اشترك فيها الجنود والمدنيون وعلى رأسهم ضباط ومواطنون ممتازون سارت إلى قصر الكردينال فى ١٦ كانون الثانى ، وطلب المتظاهرون إلى البابا الموافقة على المنهج الدموقراطى . وكان البابا كلف قبل ذلك (جلينى) وهو من رؤساء الدموقراطيين تأليف الوزارة إلا أن الجمهور أصر على أن يتعهد البابا قبل كل شىء بالعمل الإيجابى حسب المنهج الدموقراطى ، ولكن البابا رفض الإذعان ، وقد حاول جلينى عبثاً أن يقنعه . ولما فشل فى ذلك استعرض الجمهور أسلحته النارية ليحمل البابا على القبول ، ولكن الحرس السويسرى الساخط على هذه التهديدات أطلق بعض الطلقات فكانت دليل التصادم . وكان الجند الأهلى والحرس المدنى بجانب الشعب ، فوجهوا نيرانهم نحو القصر وقتلوا أسقفاً وظل البابا مصراً على عناده ووعد بأن يترك أمر المنهج الشعبى

إلى قرار المجلس ، وكلف ستربينى وهو أكثر رؤساء الدموقراطيين تصلباً وأقلهم خبرة فى شؤون الدولة تأليف الوزارة ، فاعترف المعتدلون بعجزهم وانتهزوا الفرصة للتخلص من المسؤولية فى مثل هذا الظرف العصيب . وكان تركهم المجلس سبباً فى حادث كان من الخطورة بمكان ، إذ أصبح البابا جزوعاً يود الإفلات من مدينة تسود فيها الثورة ، وفى ليلة ٢٤ تشرين الثانى هرب من روما متنكراً والتجأ إلى مملكة نابولى حيث خصصت قلعة (جايته) الواقعة على الحدود مقراً لبلاطه .

وشعرت مدينة روما بأن اضطرار البابا إلى الهرب يمس سمعتها وضاعف منفاه عطف الناس عليه وخفف من الغلواء هذه فما كان عليه إلا أن ينتظر قليلا حتى تفتح له روما أبوابها . إلا أنه لسوء حظه وحظ البابوية أسلم نفسه إلى حاشية سوء وحاول المعتدلون والحكومة الإفرنسية عبثاً دعوته إلى بولونية أو إلى مارسيلية ، وآثر كما يبدو أن يظل أسيراً لدى فرديناند وألعوبة بيده ، وقد وقع تحت نفوذ الكردينال أنطونلى المتزايد الضار . وقد اندفع البابا فى سياسته الرجعية العمياء من دون هوادة ، ومما شجعه على موقفه هذا وعوده بالمساعدة التى قطعتها جماعات عديدة فى فرنسه وبلجيكه وإيرلنده وسويسره حتى أصبحت قضية البابا فجأة من القضايا الأوربية الخطيرة الشأن . أما أسبانيه فكانت وجهة نظرها تتلخص فى أن البابا أمير روحى فيجب أن يكون

تحت حماية جميع الأمم الكاثوليكية بطبيعة الحال ، وقد اقترحت عقد مؤتمر دولى للبحث فى القضية البابوية ، ورضيت نابولى والنمسه بهذا الاقتراح . وكانت الأخيرة تأمل أن تجعل من البابا على الأقل حليفاً سلبياً ضد بيمونته ، وأدرك جيوبرتى خطورة الأمر فارتأى رأياً جديداً لبقاً إذ أعلن أن بيمونته لا تؤيد أى مشروع يرمى إلى أن تبت الحكومة الأجنبية فى الشؤون الزمنية لدولة ايطاليه وأنها هى بصفتها دولة إيطاليه من حقها أن تتدخل ، وقد سعى جيوبرتى لإصلاح البين بين البابا وأهل روما وضمه إلى الحلف الإيطالى بتقديم ملجأ له فى مدينة (نيس) والتدخل بالقوة لإعادته على رأس دويلاته .

ولقى جيوبرتى تعضيدا من الحكومة الأفرنسية فى مقاومة الفكرة النمسوية الاسبانية . ولم يكن فى مقدور رجال الدولة الأفرنسية الثورية إلا أن يشجعوا أحرار روما ، وحينما أراد البابا أن يفصل عن الأحرار طلب إلى (كفياك) ، وزير الخارجية الأفرنسية ، أن يحميه ضد النمسويين فى الخارج وضد الدموقراطية فى الداخل رفضت الحكومة الأفرنسية أن تتدخل بينه وبين شعبه ، وأخيراً لما تخلى البابا عن الأحرار وأخذ يتملق للدول الرجعية لم يسع فرنسه أن تستمر على جعل نفسها حامية له ومدافعة عنه ضد النمسه ، وقد رفض (كفيناك) ، ولويس نابليون التدخل مادام شخص البابا فى أمان ، وكانت مهمتهما لدى بيوس بدون

نتيجة ، ولا سيما لأن سياسته كانت تميل إلى قبول حماية النمسه وأسبانيا والتخلص من قيود الحكم الدستورى ، وفى شهر — كانون الأول كتب إلى (ابنه الأعز) أى إلى امبراطور النمسه طالباً منه المساعدة .

وقد زادت قضية البابا فى الطين بلة وأظهرت تفاهة قيمة ضم الدول بعضها إلى البعض الآخر ، وظلت القضية فى نظر المعتدلين والدموقراطيين عبارة عن العمل لجمع القوى القومية لأجل تجديد الكفاح فى سبيل الاستقلال . ولما كان باريتو فى الحكم كان همه أن يجعل بيمونته غير مقيدة بأى تعهد تجاه الدول الأخرى ، ولذلك فإنه رفض كل محاولة فى هذا الشأن ، ولما تولى كسالتى الحكم كان قد أرسل روسمينى بتأثير من جيوبرتى لفتح باب المفاوضة مع روما من جديد ، وعهد إليه أن يعرض على البابا امتيازات واسعة لم تعهدها الكنيسة فى بيمونته مقابل انضمامه إلى الحلف ، وكان البابا قد مضى فوعد جيوبرتى أن يتولى شارل البرت على إيطاليه الشمالية إذا انتصر وكان لا يزال حينذاك إيطالياً مخلصاً يرغب فى أن تطرد النمسه شريطة أن لا يتهم هو بإعلان الحرب على دولة كاثوليكية ، وكانت روما وفلورنسه مستعدتين للتوقيع على مشروع لا يتضمن إعداد جيش اتحادى فحسب بل اتفاقاً جمركياً وتشريعاً مشتركا أيضاً . ولكن حينما تولى بنيلّى الحكم عادت بيمونته إلى عزلتها السابقة ، ولو انعقد الحلف لأدت

الحرب القومية التى نشبت فى الربيع الذى أعقبها إلى نتيجة أخرى ، ولما كانت جمهورية فى روما ولا كان ارتجاع فى فلورنسه حتى ولا احتلت روما من قبل الأفرنسيين ، ولكان الحكم الدستورى قد استقر فى طوسكانه ، ودويلات الكنيسة ، وربما فى نابولى أيضاً ولكان لقاء ذلك مجلس الاتحاد ساحة تنافس على الأرجحية بين نابولى وبيمونته ولجأ كل منهما فى سبيل ذلك إلى مظاهرة الاتحاديين ولأصبح الكفاح فى سبيل جعل السلطة الزمنية رمزاً . ولما أدرك بعض الدموقراطيين وعلى رأسهم ميانتى وجيوبرتى عاقبة تشتت القوى أخذوا يسعون إلى اتفاق بجمع القوى للحرب . وكان المؤتمر الاتحادى الذى توفقوا لعقده فى تورينو فى ١٠ تشرين الأول محروماً من الصبغة الجريئة ليجمع الراديكاليين أو لتنشيط سير الحكومات . أما الدموقراطيون الطوسكانيون الذين كانوا فى الحكم حينئذ فقد رجعوا إلى مشروع مونتانلى القائل بقيام مجلس تأسيسى إيطالى ينعقد فى روما وينتخب أعضاؤه بالاقتراع العام ، وتكون مهمته الوحيدة الاستعداد للحرب فى سبيل طرد النمسويين حتى إذا ما تم ذلك يكون إلى البت فى مستقبل البلاد السياسى وتختار الأمة الملكية أو الجمهورية والوحدة أو الاتحاد ؛ وقد نسى مونتانلى أن الدموقراطيين كانوا حينئذ ضعفاء جداً وفاقدى التنظيم ، حتى أنهم لا يستطيعون أن يملوا إرادتهم على الحكومات ما عدا طوسكانه وروما ، فضلا عن أن الدموقراطية فى بيمونته لم تكن تهتم بالوحدة كثيراً ، ويظهر أن

مونتانلّي كان يميل إلى قيام حكومة اتحادية قوية تمنح كل دولة فى الاتحاد حكما ذاتياً بأوسع حدوده ، ومع ذلك فلم يكن ما يحول دون أن يكون المجلس جمهورياً أو قائلا بالوحدة مما حدا بفردينانند وشارل البرت إلى الاعتقاد بأن الموافقة على الاقتراح المذكور معناه انهيار عرشهما .

ولما بدأ مونتانلّي فى مذاكراته للعمل المشترك أخذت صعوبات الاقتراح تظهر بجلاء ، وكان جائزاً أن يتفاوض مع (جرازّي) ، لاجتذاب بيمونته ونابولى إلى المشروع وإغرائهما بتقسيم دويلات الكنيسة إلى ثلاثة أقسام ، بيد أن بيمونته رفضت الموافقة على أى تنظيم خارجى أو داخلى يقيد حرية عملها فى موضوع الملكية فى شمال إيطاليه ، والواقع أنها كانت تفضل أن لا تشترك الحكومات الأخرى فى الكفاح إلا قليلا حتى تحتكر هى ثمرات الانتصار . فلذلك كان جواب بنيليّ لمونتانلى : « يجب علينا الآن أن نقصر اهتمامنا على موضوع الحرب ، لا المجالس التأسيسية » ، ولما رأى جيوبرتى أن المفاوضات طالت بلا جدوى قدم اقتراحاً جديداً يتضمن الاتفاق على أسس لا يمكن لطوسكانه أن تقبلها . ولما رأى مونتانلّي تقلب بيمونته أخذ يسعى لقيام مجلس تأسيسى من قبل طوسكانه وروما من دون انتظار الدول الأخرى . وكان يأمل هو وجيرازى إمكان اندماج الدولتين المذكورتين فى دولة قوية تقوم فى المركز بفضل وطنيتهما التى تقل أنانية عن وطنية بيمونته أو نابولى .

وجد مونتانلى أهل روما على استعداد للنظر مبدئياً فى اقتراحه ، وبينما كانت العناصر المعتدلة والدموقراطية فى حالة ضعف فى بيمونته كان الدموقراطيون فى روما مثل زملائهم فى طوسكانه هم الفائزون ، وقد شل هروب البابا حركة الدولة ، وأخذت روما تسير نحو الجمهورية ولكن روما هذه من دون البابا شيء لا يتصوره العقل . فخروج الأغنياء وفقدان المراسم الدينية قد جردا المدينة من مظاهر أبهتها وبعثا القلق فى نفوس سكانها ، حتى إنه لما وصل غاريبالدى إليها فى شهر كانون الأول لم يلق فيها الحفاوة اللازمة . وكان قسم من الحرس المدنى على استعداد لأن يكون فى جانب البابا إذا ارتضى بقيام حكم دستورى ، وكانت فى الحين ذاته فئة قد اعتزمت أن تعارض أى تفاهم مع البابا ، وكانت صحافة المتطوعين والشرطة والقسم الأعظم من الحرس المدنى بجانب هذه الفئة وقد أدت الأعمال الرجعية فى (جايته) إلى رد فعل نشط دعاية المتطرفين ، وأخذ الشعب يعتنق بالتدريج فكرة استقلال جديدة ، وأخذ مع ستريني يفضل أن يرى روما عاصمة إيطالية بدلا من أن تكون عاصمة الكثلكة . وأخذ عملاء مونتانلى وغاريبالدى يتظاهرون فى الأندية داعين إلى خلع البابا خلعاً نهائياً .

وكان ميانتى زعيم الأكثرية فى المجلس النيابى — ومع أنه كان يصر على فصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية فإنه لم يكن يوافق على اقتراح يركن إلى تدمير سلطة البابا . وكان زعيما المعارضة (ستريني وكارلو بونابارته) وطنيين غير متطرفين . وكانت مقاومة

الموظفين الرهبان السلبية قد شلت السلطة الإجرائية . فأخذت ضرورة تأليف حكومة قوية ، مهما كلف الأمر ، تبدو للعيان يوماً فيوماً . وأخذ أنصار البابا يتهزون الفرصة لإعلان العصيان ، وبينما كانت النمسه تهدد الشمال . كان أهل روما أنفسهم لا يدرون أيعدون فرنسه من أصدقائهم أم من أعدائهم . ولما رأت الرومانى أن شارل البرت لا يشجع حركة الانضمام إلى بيمونته أخذت تطالب بحكومة تهدئ البلاد وتحميها من رجال الإكليروس والنمسويين . وقد قرر المؤتمر الذى اشتركت فيه أندية الرومانى تأييد فكرة انتخاب مجلس تأسيسى بالاقتراع العام يبت فى مصير الدولة . وحمل الدموقراطيون هذا الاقتراح إلى روما فتحزبت جمعية (جونتا) له . وبينما كان المجلس على استعداد لأن يقترع ضد الاقتراح قررت الحكومة حل المجلس ، وعلى أثر ذلك استقال ميانتى فتألفت وزارة برئاسة الأسقف الدموقراطى موزاريلى وحاول زوكى الذى لم يعد يثق بالحكومة أن يسوق معه حامية بولونية إلى (جايته) ، فلم يسر معه أكثر من مائة جندى إلى الحدود .

وأظهرت الانتخابات التى جرت فى شهر شباط قلة أنصار المعتدلين ، وكاد يصبح المجلس مؤلفاً من طبقة الزراع والصناع من أهل دويلات الكنيسة لولا وجود ما زينى وغاريبا لدى وخمسة آخرين ، وقد اجتمع النواب فى ٥ — شباط وتباحثوا فوراً فى القضية الدستورية ، وكانوا يترددون فى اختيار شكل الحكومة ،

وكانت فئة صغيرة قد فازت فى الانتخابات على أساس برنامج جمهورى ، وكانت الوزارة على استعداد دائم لاستدعاء البابا إن رضى بإقصاء انطوننللى وضمن قيام الدستور ، وكان ميانتى معارضاً للجمهورية لأسباب دستورية من جهة ، ولأن الجمهورية تقيم عراقيل فى سبيل الاتحاد من جهة أخرى . أما مونتانلىّ فاستعمل نفوذه للحيلولة دون أى قرار لا يفوز برضاء الأمة بأجمعها ، ويظهر أن إيطاليه لم تتحمس للجمهورية إلا قليلا . فطوسكانه مترددة وبيمونته ملكية بينما كانت فنيسية وصقلية لا تثقان باتفاق روما ؛ أما حركة الارتجاع الملكية فى نابولى فكانت هى الفائزة ، بيد أن المتحمسين كانوا يتوقعون أن يؤدى إعلان الجمهورية من أعلى الكابتول إلى تحمس الشعب الإيطالى فى جميع أنحاء إيطاليه وينفخ فى الأمة نشاطاً عظيما ويغلب العروش الأخرى . وبعد أربعة أيام من اجتماع المجلس التأسيسى أعلنت الجمهورية بمائة وعشرين صوتاً من مائة واثنين وأربعين ، ثم أعلن المجلس إلغاء السلطة الزمنية البابوية وعرض على البابا ضمانات للتمتع بامتيازاته الدينية فقط .

وقد تأثرت سياسة طوسكانه بالاندفاع فى روما، وكانت وزارة مونتانلىّ وجيرزانىّ تتمتع برضاء عام حتى أن خيرة المعتدلين كانوا على استعداد لمنحها ثقة كبيرة ، وكان منهج الوزارة يتضمن إصلاح الاعتماد المالى وتنظيم الجيش والحرس المدنى وتطهير الإدارة من العناصر الفاسدة والعمل على استتباب الأمن العام . وحاول جيرازى

تأليف الشرطة وإلغاء التسول وإقصاء المتدمرين وغير اللائقين من المتطوعين ، ولكن تنفيذ النهج لقى صعوبات كبيرة حتى أصبح العمل متعذراً ، حاول جيرارى عبثاً تنظيم الأعمال وأخذ المتدلون المتشددون يضعون العراقيل أمام الحكومة ، أما الديموقراطيون المتطرفون فى فلورنسه فأخذوا يحملون على الاقتراع الضيق ، ولما رأى جيرارى كثرة الشعب عليه سعى لتأديب مثيرى الفتن ، بيد أنه لم يكن لديه أية قوة واعتبره الديموقراطيون خائنا . وفى ١٠ — شباط اجتمع المجلس وكانت أكثريته من المتدلين ، ومع أنها أكثرية قليلة إلا أنها كافية . ووعد خطاب العرش بإقامة مجلس لطوسكانه وحدث بعد إحدى عشر يوماً أن أعلن المجلس النيابى فى روما نفسه مجلساً تأسيسياً لجميع إيطاليه . فرأى الديموقراطيون القوميون فيه مجلس نواة إيطالى وفرصة سانحة لجمع طوسكانه وروما فى دولة أخرى واحدة ، وكانوا يعلمون أن النواب الرومانيين يجعلونهم يكسبون أكثرية ديموقراطية لا يستطيعون أن ينالوها فى بلدهم . فطالبوا بأن ترسل طوسكانه ممثلين عنها إلى روما ، وكان جيرارى قد ضمن مخالفة الأمير للاقتراح بواسطة أخى السفير الإنجليزى ، واغتبط المتدلون لهذه الفكرة وأذعن مجلس الأعيان للفكرة . وكان الأمير يتردد فى الاشتراك فى قرار من نتائجه أن يحرم البابا من سلطته الزمنية ، ولذلك فإنه كى يتخلص من ضغط الرأى العام الافلورنسى عليه وليكسب الوقت

الكافى للاطلاع على أخبار البابا أجل التوقيع على القانون . وفى ٣ — شباط ترك فلورنسه بحجة تافهة وذهب إلى سيّفه ، ولما الحقه مونتانلى لحمله على العودة أبدى ارتياحه نحو الوزارة ونيته فى العودة ، ولكن فى اليوم الذى وصل مونتانلى إلى سيّنه استلم لأمير كتاباً من البابا يلح عليه أن يترك البلاد . وكان راد يتمسك شرط عليه أن يترك البلاد ليبادر إلى نجدته حالما ينتهى من أمر بيمونته . فهرب إلى الميناء الصغير (سانتو ستفانو) الواقع على حدود دولته الجنوبية وأعلن للطوسكانيين بأنه فر لكيلا يوقع على قانون يجر عليه الحرمان الدينى . ولما شاع الخبر فى فلورنسه تظاهرت الجماهير داعية إلى خلع الأمير ، وطلبت إلى المجلس بأن يقرر تأليف حكومة موقتة وبالفعل فإن المجلس بزعامة كابونى وريكاسولى قرر بالإجماع أناطة مهمة تأليف المحكومة بجيرازى مونتانلى ومازينى .

وقد أيد الدموقراطيون هذا القرار لأنه خطوة نحو الجمهورية ، ورأى فيه المعتدلون الوسيلة الوحيدة للحيلولة دون الجمهورية ، وقد أبرق جيرازى إلى ليفورنه نبأ خلع لئوبولد ، وأرسلت الأوامر إلى الأيالات لتجنيد المتطوعين والتعاون مع الأندية ، ولما وصل مازينى إلى ليفورنه استطاع بصعوبة أن يقنع المدينة بأن تكف عن عزمها على إعلان الجمهورية ، ولكن وجود الأمير فى سانتوستفانو قد شجع المخلصين له وجميع عناصر الشعب الذين استفادوا من اسمه

فأحرق عمال السكة ، الذين سبق فأخرجوا من العمل ، محطة أمبولى وسعى القرويون بالقرب من فلورنسه إلى اقتحام المدينة فقوبلوا بالقوة ويعود الفضل إلى جيرازى فى انقاذ طوسكانه من الحرب الأهلية . وأعد مازينى فى ١٨ — شباط اجتماعا آخر وتظاهر الجمهور حينئذاك لتأييد الجمهورية والوحدة مع روما . وقد قبل جيرازى بعد جدال عنيف مع مازينى القول باسم الحكومة الموقتة بالجمهورية . وفى اليوم التالى أصدرت الحكومة الموقتة بياناً أشارت فيه إلى الجمهورية التى عادت إلى دارها بعد (٣١٨ سنة) . أما الأمير وقد أصبح يرزح تحت عبء الخيانة فظل متردداً ولا يعلم فيما إذا كان ينبغى له أن يرمى بنفسه إلى أحضان بيمونته لتساعده أم أنه يؤجل سير القضية القومية فيرجع نادماً إلى حضيرة هبسبورج ، وقد احتج أولا على القرار زاعماً بأنه لم يفكر قط فى ترك الدولة ، ثم قبل تكاليف جيبورتى بالمساعدة وتداول معه فى خطة تؤدى إلى دخول القوات البيمونتية . ولما ألح عليه البابا وفرديناند بأن يدع بيمونته وشأنها وأن يلجأ إلى نابولى أبحر إلى جايته ، ولما فشلت حركة لوجيه لم يلق أى مساعدة من الأهلين وانفض عنه رجاله وقبل أن يصل جيرازى ببعض المتطوعين والجند النظامى هرب الأمير إلى بيمونته . وبذلك قبلت طوسكانه بأجمعها الحكومة سواء أكان ذلك طوعاً أو كرهاً .

الفصل السادس عشر

نوفّاره

كانون الثانى — ١٨٤٨ : أزار — ١٨٤٩

ووقفت بيمونته من الحركة الجمهورية فى إيطاليه الوسطى موقف الخصم ، لاحظ الأحرار فيها أن الطوسكانيين والرومانيين ضحوا بالقضية القومية الكبرى على مذبح نزعاتهم السياسية ، وقد أقام جيبورتى فى تورينو للاشتغال بالسياسة ، وكان يرى أن إيطاليه فى الظروف التى كانت تجابهها تحتاج إلى الضبط أكثر من حاجتها إلى الحركة ، وإن الملكية كانت فى أبان سطوتها فى بيمونته ، فكل حركة جمهورية إنما تسبب انقسام البلاد تجاه العدو ، وقد برزت لياقته فى كل حادث مما دل على أنه كان سياسى عصره الأوحد فى دولة بيمونته ، وكانت أراؤه السياسية قد طرأ عليها تعديل منذ ألف كتابه بريماتو ، وقد اعتقد بعد صدور رسالة البابا العامة أن البعث القومى لن يأتى أبداً عن طريق البابوية ، وأن بيمونته هى المنقذ الوحيد ، وأدرك أن شعور الكراهية الذى يسود إيطاليه الوسطي للالبرتيين من شأنه أن يجعل الاتحاد لا الوحدة هى الخطوة الممكنة فى تلك الظروف . وإذا كانت الفكرة

القومية تقول بمنع الأجنبى من التدخل فى شؤون سلطة البابوية الزمنية أو فى تقرير مصير إيطاليه ؛ فإن الفكرة ذاتها تبيح لكل دولة إيطالية التدخل فى شؤون الدولة الإيطالية المجاورة ، فلذلك يقضى الواجب القومى على بيمونته بأن تستخدم نفوذها فى التوسط بين الدول الإيطالية المتخاصمة ، وإذا اقتضى الأمر فعليها أن تتدخل بالسلاح .

وكانت معركة الانتخابات فى كانون الثانى حامية الوطيس ، وقد انتخبت اياله صافويه فوجاً ذا بأس من المحافظين المتشردين ، وخسر المعتدلون المعركة فى كل الأنحاء ، وكان القسم الأكبر من الأكثرية الدموقراطية من الرجال الجدد ، أى من صغار المحامين فى الأيالات ومن اللمبارديين اللاجئين ومن الرهبان المتطرفين الذين يدعون إلى الاستمرار على الحرب وغيرهم ممن كانوا على استعداد لتأييد جيوبرتى ، وسرعان ما فترت العزائم حينما صرح الوزير الأول فجأة أنه لن يشترك فى المجلس التأسيسى فى روما ، وقلق أولو البصيرة من الدموقراطيين من ذلك رغم امتعاضهم من سياسة إيطاليه الوسطى ، وأخذت الثغرة بين بيمونته وبين إيطاليه الوسطى فى الاتساع ، وكان موقف جيوبرتى موقف الانتهازى المحدود الفكر إذ كان يرتأى بأن الوحدة لا يمكن أن تتم الآن وأن الواجب يقضى بالانصراف إلى الإصلاحات العظيمة الشأن وإلى تدعيم وتقوية الحكومة الدستورية وفكرة الاتحاد ؛ وبانجلاء موقفه

هذا تجاه المجلس التأسيسى انقطعت كل صلة بينه وبين الديموقراطية ولا سيما بعد أن صرح بأنه لم يشترك فى المجلس التأسيسى لأن الاشتراك فيه يسيء إلى الأمراء والبابا ، وبموقفه هذا أى بقطع صلاته بجمهورية روما قضى على كل أمل فى الاتفاق مع إيطاليه الوسطى .

لقد ظن جيوبرتى أن إعادة الدوق الكبير إلى الحكم بالسلاح البيمونتى قد يؤدى إلى تسخير جميع قوات طوسكانه فى سبيل الحرب ، لأن حدودها تصلح لأن تكون قاعدة ذات فائدة عظيمة للحركة ضد الجانب النمسوى ، وكان فى سبيل هذا الغرض على استعداد لأن يسحق برجله كرامة الطوسكانيين ومن دون أن يخبر الملك ، ولعله من دون أن يخبر زملاءه أيضاً كتب إلى الدوق الكبير يعرض عليه إعادته إلى العرش بقوة السلاح ، ولما لم يوفق إلى ذلك اضطر إلى الاستقالة فى ٢١ كانون الثانى .

ويظهر أن النمسويين كانوا عازمين على أن يكبتوا الشعور القومى فى لمبارديه وذلك على أثر الانتصارات فى شهر آب ، وقد اشتد استياء الأهلين وتوترهم أكثر من قبل والتجأ آلاف من اللومبارديين إلى بيمونته وسويسره . أما الذين بقوا فى البلاد فقد خاضوا غمار معركة صامتة ضد السلطة ، ذلك أن مجالس الأيالات رفضت إيفاد نواب عنها للمجلس الأمبراطورى فى فينا . وحيث إن الحاميات العسكرية القومية قد استطاعت أن تحافظ على الأمن

ولو ظاهراً فإن راديتسكى عزل الحكام المدنيين وأجل الحكم الدستورى الموعود ، وفرضت ضرائب باهظة لتسديد نفقات جيش الاحتلال وأصبح الشخص الذى يحمل السلاح فى ميلانو عرضة لعقاب الموت . وقد قتل بعض الناس رمياً بالرصاص أو جلدا لهذا السبب . فلم يشاهد فى هـذه الظروف فى أزقة ميلانو إلا جنوداً ومتسولين . وكانت خطة راديتسكى ترمى إلى معاقبة الأغنياء واستجلاب الدهماء لاستخدامهم فى النهب ، ولكى ينكل بالطبقة النبيلة فى ميلانو ليغيظها فإنه فرض غرامة نقدية ، عشرين مليوناً من الليرات على مائتى شخص من هذه الطبقة ، ولما لم تدفع هذه الغرامة صادر كثيراً من أملاكهم وأموالهم . ولم تؤد هذه الأعمال إلا إلى إثارة حقد جميع الطبقات وأصبح الشعور السائد فى جميع أنحاء لمبارديه ضرورة الثورة فى أول فرصة يمنحها اللمبارديون إخوانهم الطليان . وكانت الرغبة فى الخلاص من الحكم النمسوى تجيش فى صدور جميع الإيطاليين من أحرار ودموقراطيين إذ كانوا جميعهم يحقدون على استبداد راديتسكى . بيد أنه لم يبق أثر للثقة ووحدة الشعور اللتين كانتا تسودان سنة ١٨٤٨ ، فذكر الانكسار الحديث والشعور أخيراً بشوكة النمسويين أبعدتا الرجل المتردد عن الميدان وجعلتا الرجل المتيقظ يتربص وينتظر ، وقد فقد الدموقراطيون كثيراً من حماستهم ونفوذهم لضعف عزيمتهم وكفايتهم ، وحالت الاختلافات دون توحيد مساعيهم مع المعتدلين

ومع أن أكثرية الأمة الساحقة كانت قومية النزعة من صميمها كما كانت فى السنة الماضية إلا أنها لم تعد تتحمس لقضية الاستقلال حماستها الأولى ، فالحسد بين الدول المختلفة والمخاوف من التوسع البيمونتى ونقمة الكنيسة كانت عوامل تحول دون تكاتف القوى القومية ، حتى أن المفاوضات المؤيدة فى سبيل عقد الحلف لم تنجح كما أن المجلس التأسيسى لم يوفق إلى توحيد طوسكانه وروما . أما نابولى فبقيت منعزلة وكانت صقلية تهتم بحكمها الذاتى أكثر من اهتمامها بالوحدة الإيطاليه ، وانصرفت فنيسيه إلى مشاكلها الخاصة بها لا تثق ببيمونته ولا بالمجلس التأسيسى .

وأصبحت بيمونته لا تستطيع أن تعتمد على أى مساعدة إيطالية فى الحرب المقبلة كما أنه لا أمل لها فى مساعدة الأجنبى . ورغب لويس نابليون فى أن يحارب فى جانب بيمونته إلا أنه لم يجد وزيراً واحداً يقول برأيه ، كما أن باستيد وبالمرستون قد أساءهما رفض بيمونته التفاهم مع فينا ، فعليه يتضح أن بيمونته سوف تضطر لأن تقف وحدها فى وجه الامبراطورية النمسوية العظيمة . ومع ذلك فإن بيمونته حين أيقنت أن الاستمرار على الحرب أمر لا بد منه أظهرت شجاعة فائقة كانت تتصف بها . ولما استقال جيوبرتى وتولى الجنرال (جيودو) رئاسة الوزارة بقى جميع وزراء جيوبرتى فى الوزارة الجديدة . وكانت جنوة تلتهب حماسة للحرب ، وكانت مدينة نيس إيطالية الشعور شأنها شأن بيمونته . ولم يكن

فى المجلس النيابى من لا يتحسس للحس القومى الإيطالى سوى نواب صافويه حتى أن بيمونته نفسها لم تعد تسودها تلك الحماسة العامة التى أقامت البلاد وأقعدتها قبل سنة ، فالرهبان الذين ساروا على خطة البابا فى ترك القضية أخذوا يستعملون نفوذهم فى التأثير فى القرويين الفقراء فى بعض المدن . وازدادت قوة الجيش حتى بلغت ثمانين ألفاً ، إلا أن بعض الكتائب كانت مؤلفة من المستجدين أو من المتزوجين الذين كانوا ينتظرون حين العودة إلى بيوتهم بفارغ الصبر . وكان الملك قد ترك قيادة الجيش ، ولما فشلت المساعى للحصول على قائد افرنسى اختير الجنرال البولونى جرز رانوفسكى قائداً للجيش ، وكان قد برز فى الحروب واشتهر بصداقته للحرية .

انتهت الهدنة فى ١٢ أيار ولكن الجيش البيمونتى كان منتشراً على طول أنهر تسينا وأوليجيو وبو ، واجتازت فرقة مارمورا مضيق سيزا لإشعال الثورة فى لمبارديه ، وكان القسم الأكبر من الجيش بين (نوفاره ومورتاره) وبينما كان البيمونتون قد شتتوا قواتهم كما رأينا كان راديتسكى قد استعد لانزال الضربة القاضية ، فبعد أن ترك حامية ضعيفة فى ميلانو جمع خمسة وسبعين ألفاً فى بافيه وشرع مساء يوم ٢٠ آذار باجتياز نهر تسينا . وبعد معارك استمرت يومين اضطر الجيش البيمونتى إلى الانسحاب ، فقرر جرزانوفسكى الاستعداد للمعركة أمام نوفاره بقوة لا تتجاوز الخمسين

ألفاً ، وعلى الرغم من أن الفرصة كانت سانحة للوقوف أمام الجيش النمسوى الذى كان يطارد الجيش البيمونتى ببطء وحذر ؛ فإن المعركة التى نشبت صباح يوم ٢٣ آذار واستمرت إلى المساء قد خسرها الجيش البيمونتى بسبب جهل القيادة وسوء التدبير فى التموين ، وقد اشترك الملك فى المعركة مستهدفاً للموت ، ورغم الانكسار أراد الاستمرار على القتال إلا أن قواده رفضوا ذلك فاضطر إلى طلب الهدنة ، ولما اشترط راديتسكى شروطاً ثقيلة تأباها نفسه تخلى عن الملك واجتاز خطوط النمسويين متنكراً فى طريقه إلى منفاه القصى .

الفصل السابع عشر

شباط — ١٨٤٨ : أيار — ١٨٤٩

ظلت نابولى فى السنة المنصرمة منعزلة عن الحركة الوطنية ، وكان كرياتى الذى تولى الوزارة بعد الارتجاع رجلا ذا هدف ومطمح إلا أنه كان ضعيف الإرادة جداً ، فلذلك ظل بوزيلى العضو النافذ فى الوزارة ، وأخذ كرياتى يدير دفة الدولة بين الكاماريلا « الجماعات الذين ساعدوا الملك على حركة الارتجاع » وبين البرلمان ، همه الوحيد الاحتفاظ بمنصبه الذى رفعه من فقر مدقع إلى ثروة طائلة وأصبح ألعوبة بيد الملك أيضاً . ومع أن البرلمان قد حل قبل أن يجتمع ؛ فقد صدرت الأوامر بانتخاب مجلس جديد وظلت الصحافة حرة . لكن اليسوعيين عادوا إلى المسرح كما ظهرت الشرطة القديمة فى الميدان ، ومنعت الاجتماعات العامة . وكانت البلاد قد بوغتت فى ١٥ — ايار ، وكان أغلب الناس فى اضطراب شديد لا يستطيع معه العمل ، وأنه حنق للحوادث التى جرت فى نابولى ولاستدعاء (بيه) إلا أنه كان لا يزال يميل للاعتقاد بقسم الملك ، وأن شارل البرت سوف ينتصر لا محالة ، أما البلاط فلم يجرأ على إقامة الدستور .

وكانت الأيالات الجنوبية مستقلة عن نابولى بصورة عملية ، وكانت الثورة تتمخض فيها وفى نواحى جبال أبروزا ، إلا أن فقدان الأسلحة وقلة الثقة المتقابلة حالا دون قيام الأيالات بعمل مشترك ، وتركت كالابريه وحدها ترفع راية العصيان ، والتحق آلاف من الناس بجيش الثورة ، وأنضم إليها موظفون من جميع المناصب ودلت قلة الجرائم وإسراع الناس إلى تأدية الضرائب على أن البلاد كانت مجمعة على الانقياد للحكومة الثائرة ، وكانت تحتاج إلى قائد مثل غريبا لدى يقضى على عدم الثقة والحسد اللذين برزا للعيان وبسببها رفضت القوة المرسلة من صقلية البالغة ٦٠٠ شخصاً الحركة مع الكالابريين ، وقد انتهز الملك الفرصة وساق ثمانية آلاف من الجند إلى أيالة كالابريه ، واقترفوا فيها من المظالم ما أفزع الأهلين وأخمد حركتهم . ولما حل الخريف ورغب القرويون فى الذهاب إلى أهلهم ولأجل الحصاد اجتاح قائد الجند تلك الأيالة المسكينة وشجع القرويين على نهب أموال الأحرار وساق الرؤساء الأسرى إلى برج جايتـه .

وأظهرت الانتخابات التى جرت تمسك الناخبين بالأحرار ، ففاز الأعضاء القدماء فى جميع الأنحاء ، وتجلى فى نابولى شعور البلد الحانق ، وكان الامتعاض سائداً بين الوطنيين حتى خلت المراسح والمقاهى وقوطع الضباط مقاطعة شديدة ، وأخذت مؤامرة جريئة تحاك ، وأخذ البعض يحلمون بتوحيـد الجنوب بالشمال بزعامة

آل صافويه ، وكانوا قد نادوا بشارل البرت ملكا لإيطاليه ، ولكن البرلمان أخذ يظهر ضعفه السابق ، وبدأ الأعيان يؤآزرون الحكومة بشدة وكان كثير من النواب يخشون الاقتراع ضدها ، ورغبت الأكثرية فى التفاهم مع الملك ومؤآزرة الحكومة إذ قررت سوق الجنود إلى الحرب ، وقد تجاهلت ثورة كالابريه وأغمضت عينها عن طمع الملك بالاستيلاء على صقليه من جديد ، ولكن التفاهم منى بالفشل ، وأخذ يوزيلى يظهر عدم ارتياحه للحال بالتخلف عن حضور جلسات المجلس النيابى ، أما الملك فصم أذانه عن طلبات المجلس ، ومع ذلك فإن الحكومة لم تجرأ على حل المجلس إلا أنها لم تكن تجرى انتخابات للمقاعد الشاغرة . ولما حلت مصيبة كوستوزه وجدت الحكومة فى نفسها الجرأة الكافية للهجوم على صقليه وأجلت اجتماع البرلمان ، ولأجل القضاء على كل مقاومة من جانب الطبقة الوسطى رتب رجال الشرطة مظاهرة فى سانتا لوسيا ضد المجلس النيابى ، ولما اصطدم العمال الحانقون بالدهاء شتتوا شملهم ، وكان هذا الحادث قد جهز الملك بالحجة اللازمة ليقضى على الأحرار . وحين أخذ انتصار النمسويين يبشر بنجاح الحركة الرجعية رفع رجال الكاماريلا القناع عن وجوههم ، وكان بوزيلّى مؤيداً لهم ، واخفض عدد الحرس الوطنى فى العاصمة ، حتى أصبح عنصراً مهملا ، واضطهد الأمناء والولاة من الأحرار وفصل ذووا المناصب من مناصبهم ، وطهر القضاء من العناصر الحرة حتى صار

أداة بيد الشرطة ، وتزايد تحكم الجيش حتى أصبحت حياة الأهلين تحت رحمة الضباط ، وجلد بعض الناس وقتل آخرون من قبل الجند ، وبعد أن قضى فرديناند على الثورة اعتبر أول ملك أعاد النظام فى أوربا ، وقد اتخذ برج جايتّة مسكناً للامراء الذين اعتبرهم فى عداد المسئولين عن نجاح الأحرار فى حركتهم الأخيرة .

ومع ذلك فإنه لم يقدم على وقف الحياة الدستورية خشية ثورة البلد الذى مهما كان مطيعاً فقد يعود ويصبح خطراً ، ولذلك ظلت الحياة الدستورية قائمة ولكن بصورة اسمية ، وقد قطعت العلاقات السياسية مع تورينو وفلورنسه ، ولما شرعت الحركات الحربية من جديد فى الشمال أقدم الملك على العمل ، فاستدعى الوزير النمسوى المفوض الذى كان غادر البلاد وشرع بالحركات من جديد فى صقليه وأعلن حل البرلمان ، ولما وصلت أخبار ، نوفّاره انطلقت أيدى يوزيلى والكاماريلا ، واعتقل معظم النواب وهرب بعضهم وقيدت الصحافة وأغلقت المدارس وعوضد اليسوعيون ، وبينما استعبدت نابولى لأنها واجهت الأحداث بخور ونقص فى شجاعتها فأن صقليه استقبلت محنتها بوطنية شديدة وبطولة عنيفة وشجاعة فائقة ، فلم تلق السلاح إلا بعد أن أضاعت كل أمل ، على أنها لم تخل من الأخطاء التى ارتكبتها الدويلات الأخرى . فأسلوب الحكم وعدم نسيان الحزازات الحزبية وخيانة البعض من الطبقة المتغلبة مما أدى إلى فشل القضية فى الدويلات الأخرى . وكانت

الظواهر تدل على أن نابولى لن تستطيع أن تسترد صقليه ، وكانت انجلتره وفرنسه وروسية يتسابق كل واحدة منها لتجعلها تحت حمايتها ، وكانت صقليه الدولة الإيطالية الوحيدة التى تعتز بعاض دستورى يمكنها أن تنتفع به ، وقد اتفقت كلمة الجميع فيها من الأشراف وعظماء الأكليروس واليسوعيين إلى القضاة والتجار والقرويين على الاحتفاظ باستقلال الجزيرة .

وكان رجال الأحزاب فى نابولى من الملكيين والمعتدلين والدموقراطيين لا يأبهون كثيراً بموقف صقلية الغامض ، لذلك كان من السهل على الحكومة التى كان أعضاؤها لا يعطفون على الحركة القومية — أن تسوغ موقفها من صقليه ورفض مطاليبها . وكانت صقليه قد اشترطت للتفاهم إقامة برلمان منفرد للنظر فى شؤون صقليه الخاصة ورفض دستور سنة ١٨١٢ رفضاً باتاً ، ولما رفضت نابولى تلك المطالب أعلن برلمان باليرمو سقوط آل بوربون عن عرش صقليه وانتخب (روجيير وستمّو) ، رئيساً مؤقتاً للدولة ريثما ينتخب ملك للجزيرة . وكان هذا الرئيس من حيث ماضيه المجيد وحبه للحرية وتضحيته فى سبيلها حتى بآرائه الخاصة وصفته بعيداً عن كل مغمز ومطعن ، وفى هذا الرئيس تمثلت وحدة البلاد ، ولكن وراء هذا الإجماع على قضية الاستقلال لم يكن بد من تنوع الآراء وتكوين فرق ، فهناك الوزارة وأكثرية البرلمان المؤلفة من المحامين ورجال الأدب

وبعض الأشراف يقولون بملكية دستورية تستند إلى حرية واسعة لا تبلغ الدموقراقية التامة ، ولم يكن رجال هذا الفريق يهتمون بالسياسة الإيطالية الاهتمام الكافى ، وإنما كانوا يعتمدون على عطف انكلتره وفرنسه وحمايتهما إياهم من عدوان آل بوربون ، وهناك فى البرلمان أقلية ولكنها تنزع إلى الجمهورية ، وتعنى كثيراً بالقضية الإيطالية ، وشرعت من كل قلبها فى مساعدة أحرار نابولى وجيش الشمال ، وترغب كل الرغبة فى تأليف جيش قوى يكفل للجزيرة استقلالها بلا مساعدة انجليزية أو أفرنسية ، على أن الاهتمام بتجنيد الجيش كان ضئيلا ، وتكاد الشرطة تكون مفقودة ، فكان أمن المدينة تحت رحمة عصابات من المحكومين الذين أخرجتهم قوات نابولى وموظفيها قبل رحيلهم من الجزيرة ، فضلا عن أن عصابة سكوادره المجرمة التى استخدمتها باليرمو عملا بتقاليدها فى أعمال الثورة ، وكانت هذه تنتظر حصتها من الغنيمة ، وكانت العصابات المنظمة تحيط بمدينة باليرمو ورتبت الاضطرابات فى كتانيه ومرساله .

ورغم هذه الأحوال فإن الاختلافات قد تلاشت أمام قضية انتخابات الملك ، وكان الموقف يتطلب حلا سريعاً لأن الارتباك الذى ينجم عن عدم وجود الملك يحول دون استتباب الأمن ، أضف إلى ذلك أن انجلتره وفرنسه لم تعترفا بالحكومة الجديدة قبل أن ينتخب الملك ، فلا بد إذن من أن تبت صقليه قبل كل شىء فى شؤونها الخاصة ليتسنى لها الانضمام إلى الاتحاد الإيطالى باعتبارها

دولة مستقلة ، وكان الصقليون يلحون بأن يكون لهم برلمان خاص لأن نوابهم فى مجلس مشترك يؤلفون أقلية لاشأن لها شأن النواب الايرلنديين فى مجلس العموم البريطانى ، وكانوا لايفتأون يجهرون بأن خصومتهم لنابولى لا تعنى خصومتهم لإيطاليه لأنهم إنما يريدون أن يروا نابولى شقيقة لهم لا سيدة عليهم ، على أن أحرار القارة الأوربية كانوا يعلمون بأن الوعى القومى لم يتغلغل فى نفوس أهل الجزيرة إلا قليلا وأن الحمية التقليدية القومية التى تتجلى فى المطالبة تطغى على كل عاطفة إيطاليه عامة ، ولقد كان هناك خطر يهدد القضية الإيطالية فى سعى صقليه لأن تكون دولة مستقلة بحماية إنكلتره .

فاختيار الملك إذن كان أحسن واسطة لمعالجة تلك الميول ، ومن المحتمل أن تعترف الدول الإيطالية بدولة صقليه أثر انتخابه ما عدا دولة نابولى ، وكان فى الميدان مرشحان خطيران أولهما أمير [illegible] ، وكان لئه ولدعا استعداد لاستلام التاج باسم ابنه ، وكانت فرنسه وجميع الذين يخشون سيطرة بيمونته المتزايدة فى جانب هـذا الترشيح ، وبينما كان البرلمان منهمكا بمناقشاته وبحوثه الدستورية الطويلة أخذ الشعب يتلهف لرؤية الملك المنتخب المنشود ، وكانت شهرة أمير جنوه الحربية ورغبة الناس فى أن يتسنم العرش رجل عسكرى ذو عزيمة قد رجحت كفته وعجل فى حل القضية بيان رسمى أصدرته الحكومة

البريطانية قالت فيه ؛ إنها تعترف باستقلال الجزيرة حالما تتم الانتخابات ، وقد هدد الحرس الوطنى البرلمان باستعمال القوة إذا طال تأخير القضية ، مما اضطر المجلس النيابى إلى الاستعجال فى وضع مواد الدستور اللازمة فى الليل ، ثم انتخب المجلسان بالاجماع أمير جنوه ملكا على صقليه وذلك فى ١ — تموز .

وبلغ فرح الناس وحماسهم حداً نسوا فيه أن يتبينوا فيما إذا كان الأمير يقبل العرش ونسوا خطر استيلاء نابولى على الجزيرة ، وأخذت صقليه تتنفس نسيم الحرية والخلاص التام من أسرة بوربون البغيضة ، إلا أنه سرعان ما تكدر الجو لأن الحكومة لم تعد العدة للدفاع عن الجزيرة ، وكانت صعوبة تنظيم الجيش من الصعوبات التى لا قبل لحكومة ضعيفة بتذليلها ، ثم إن أمير جنوه أجل جوابه مما أدى بالوزارة إلى تقديم استقالتها فى شهر آب ، فألف الوزارة (توريّارسه) أحد المحافظين الشرفاء ، وكان زملاؤه أكثر دموقراطية من الوزراء السابقين ، وكان من بين وزرائه (لا فارينا وكردونه) وهما من المع رجال صقليه ، ولكن لم تكد تتولى الوزارة شؤون الدولة ثلاثة أسابيع حتى كان هجوم نابولى على الجزيرة ، وتفصيل ذلك أن فرديناند رأى الفرصة سانحة بعد أن قضى على العصيان فى كالابريه ، ووردت أخبار انخذال الجيش البيمونتى ونجاح الحركة الرجعية فجهز حملة قوية فى الخفاء وحين ترك الأسطول نابولى فى ٣١ — آب تجمعت قوة تقدر بعشرة آلاف فى سواحل

كالابريه ، ولم يكن إذ ذاك لدى صقليه إلا ستة آلاف جندى من المجندين الأحداث ، ومن جمعية سكوادره أو الحرس الوطنى الذى يعوزه الضبط ، وكانت قلعة مسينا لاتزال بيد حكومة نابولى ، واستطاع النابليون بمساعدة الأسطول الذى كان يسيطر على البحر إرسال المواد إلى القلعة ، فأخذت المدافع تمطر المدينة بوابل من القنابل ، وبعد أن أنزل القائد جنوده إلى جنوب المدينة أمر بابتعاد السفن فى الساحل ليقطع أى أمل لجنوده بالعودة ، وطلب إلى جنده أن يختاروا بين النصر أو الموت ، على أنه رغم وصول القوات من نابولى بلا انقطاع واسكات المدافع الصقليه وتشتيت رجال سكوادره ولجوئهم إلى الجبال ؛ فإن روح الدفاع الجريئة لم تهن حتى أخذ الرهبان يقاتلون بجانب المدنيين ، والنساء والصبيان يلقون بأنفسهم فى أشد المعارك ، وأخيراً استطاع المهاجمون أن يستولوا على مدينة مسينا وانتقموا من أهلها أفظع انتقام ؛ إذ أحرقوا الدور وسطوا على النساء وقتلوهن فى الكنائس ومثلوا بالصبيان وذبحوا الشيوخ فى فرشهم ونهبوا المعابد .

ومع ذلك كله لم تفت هذه الفظائع فى عزم الصقليين ، فأقسموا يمين المقاومة حتى النفس الأخير ، ولم تتنفس الجزيرة الصعداء وتتخلص من الفظائع إلا بعد قبول شروط الهدنة التى وضعها الأمير الان الافرنسى والإنجليزى ، أما أهل مسينا فرموا بوعود القائد الاصلاحية عرض الحائض مستهينين بمحاولة فرديناند

للتفاهم وقدموا ضرائبهم إلى حكومة باليرموا ، أما البرلمان فقد قطع عهداً على نفسه بأن لا يتفاهم مع العدو أبداً وأقر قانون التجنيد ، وسعى لاستخدام غاريبالدى والاستفادة منه، وحمل كردوفه المجلس على إقرار قانون لبيع الأملاك الوطنية والدينية وهو من المشاريع الخطيرة التى لو تم تنفيذها لقلبت طريقة الملك فى الجزيرة ظهراً على عقب .

وكان الجيش وسكان العاصمة ، باليرمو ولعل أكثر الناس خارجها يعاضدون الوزارة ولكن القوى الرجعية أخذت تتشجع رويداً رويداً ، وقد جلبت إصلاحات كردوفه المالية خصومة العناصر الرديئة من موظفى الخزينة ووحدت بين كبار الإكليروس وكبار الملاكين ، ولما فشلت المفاوضات فى باريس للحصول على قرض اضطر كردوفه إلى أن يفرض على الناس قرضاً إجبارياً ؛ الأمر الذى أغضب الرأسماليين ، أما أمير جنوه فقد رفض التاج بعد أن طال انتظار الناس لجوابه ، وأخذ الأعيان يعرقلون المراسيم الاشتراكية ، أما المجلس النيابى فأضاع وقته بالمناقشات ، وأوشك أن يتألف من الوسط حزب قوى ممن يحقدون على آل بوربون ولكنهم يخشون الحرب وما تتطلبه الحرب من تضحيات ، أما الحرس القومى فى العاصمة الذى كان بإمرة الأشراف والمؤلف من صغار التجار فكان يتمتع بسلطة قانونية مستقلة من السلطة الإجرائية وعن مراقبة الجيش مما اضطر كردوفه أولا والوزراء الآخرين من بعده إلى الاستقالة .

وقد دل فوز الحرس الوطنى على انهيار القضية الصقليه ، فمع أن الوزارة الجديدة أعلنت عزمها على الدفاع عن استقلال الجزيرة ، فإنها كانت مؤلفة خصيصاً من مرشحى العصبة الفائزة ، وظل بالمرستون يجهز الصقليين بالسلاح خلسة بعد الهدنة ، وكان على تفاهم مع الحكومة الافرنسية بأن يقوم السلم على أساس منح الجزيرة استقلالا ذاتياً مطلقا وتكون تابعة للتاج النابولى اسمياً ، وأظهر الملك فرديناند استعداده لقيام برلمان مستقل وإدارة منفردة ، إلا أنه لم يوافق على تأليف جيش خاص ، وأصر على تجهيز بعض القلاع الصقليه بالحاميات النابولية ، ولكن أهل صقليه أجمعوا على رفض سيادة آل بوربون حتى ولو كانت اسمية ، مما جعل فرديناند يعزم على أن لا يبدى أى تساهل آخر وأن يتولى ضبط الجزيرة ، وبعد أن رفض التكاليف الافرنسية الانجليزية فى منتصف كانون الثانى بصورة بانة نشر انذاراً بمطالبة نهائية ، وفيه منح أهل صقليه دستور سنة ١٨١٢ ، وبرلماناً وإدارة مستقلة وأن يعينوا موظفين مواطنين واحتفظ للعرش بحق حل البرلمان وسوق الجيش من دون موافقة البرلمان . وكان جواب الزعماء إصدار قانون بتجنيد عشرة آلاف جندى ، واتحد الناس وتناسوا شؤونهم الخاصة ومشاكلهم وهمومهم وزالت الجرائم وأعيدت المواد المسروقة إلى أصحابها وارجعت العصابات الأغنياء الذين اعتقلتهم ، وأخذت جماعات كثيرة من أهل باليرمو يهرعون للاشتراك فى مهمة الدفاع

وأجمع الأشراف ونساؤهم والرهبان والمحامون والعمال والصناع على العمل ، ولكن المؤسف أن لايجدى هذا الاقدام وتلك الحماسة نفعاً إذ لم يكن لدى الصقليين أكثر من سبعة آلاف جندى نظامى للدفاع حين انتهاء أجل الهدنة فى ٢٩ — آذار .

وعلى الرغم من غلطات القائد البولونى ميروسلافسكى الذى تولى قيادة القوات الوطنية فى صقليه ، اصطدم تقدم العدو بمقاومة عنيفة خلدت بطولة الدفاع عن كتانية ، ولقى أهل نابولى صعوبات جمة فى حركاتهم فى الأراضى الجبلية التى تصلح لحرب العصابات ، ولو تمكن أهل صقليه من توحيد قوى المقاومة لاستطاعوا أن يطيلو أمد الحرب إلى أن تضطر أوربا إلى التدخل ، وقد خاب الأمل فى ذلك بسبب الاختلافات التى نجحت حول الحرس الوطنى فى العاصمة وفتور الحماسة ، وقد أدى فشل حركات القائد البولونى وورود أخبار انكسار الجيش البيمونتى فى نوفارة وخشية استطالة أمد الحرب ، وكثرة النفقات ، إلى خوف الأشراف والطبقة الوسطى ، فقرر البرلمان الموافقة على طلب توسط الأميرال الأفرنسى الذى وعد بتنفيذ أحكام انذار الملك وسرح البرلمان الجنود وأبعد أنصار الحرب فى باليرمو من ساحة العمل ، واضطر الزعماء إلى ترك الجزيرة ولكن الأسطول النابولى وصل إلى الميناء فدهش الناس إذ أنهم كانوا يظنون بأن القضية تحسم من دون تدخل الأسطول والوقوع تحت رحمة آل بوربون ، فهاجت الجماهير وأخذت تنادى بالانتقام

من الخونة ، وما كان من الحرس الوطنى إلا أن اندفع مع التيار فاحتل المدينة وأخذ يدافع عنها ضد المهاجمين وأظهر بطولة خارقة أوقفت المهاجمين يومين ، ولم يكن بالاستطاعة تمديد المقاومة أكثر من ذلك ، فتسرب اليأس فى القلوب وانقطع الرجاء فى الفوز واضطر الشعب للخضوع واستسلم فى ١١ — أيار .

الفصل الثامن عشر

الجمهورية المركزية

شباط — تموز — ١٨٤٩

كادت معركة نوفاره أن تفتح أبواب إيطاليه الوسطى فى وجه الجيش النمسوى ، وقد ظل العلم المثلث الألوان برغم ذلك يرفرف فوق فلورنسه وروما ، وأدت معارضة فرنسه إلى الحيلولة دون تقدم جيوش راديتسكى نحو تورينو ، وكانت حاجزاً دون استيلاء الجيش المنتصر على الرومانى وطوسكانه ، وبذلك ظل ثلث إيطاليه قادراً على أن يدافع عن حريته ، وكان الرؤساء الثلاثة (مونتانلى ، وجيرازى ومازينى) فى فلورنسه قد قبلوا الحكم الجمهورى إلا أنهم لم يعلنوا الجمهورية بصورة رسمية ، وكان مازينى الرئيس الثالث يميل إلى عرض القضية بأجمعها على المجلس التأسيسى ، أما جيرازى فأخذ يميل إلى المعتدلين ويحتج بأن ما صدر عنه من بيانات وأعمال تنم عن نزعة جمهورية إنما اضطر إليها خلافا لرغبته ، وكان يحمل على الجمهوريين المقلدين الذين وصفهم بأنهم « يغرسون أشجار الحرية ولكنهم لا يعرفون حمل السلاح » ، وكتب إلى جيوبرتى يقول بأن الحكومة لن تعلن الجمهورية إلا بعد أن يقترع عليها ممثلو الشعب

ولكنه فى حديثه مع مازينى كان يتظاهر بأنه من أنصار الوحدة مع روما وأنه لولا قلة الجند لأعلن الجمهورية ، وكان يظن أنه يستطيع بالمداراة تمشية الأمور إذ كان يعتقد عن حق بأن انسحابه يؤدى إلى الفوضى .

والواقع أن المعركة فى سبيل الجمهورية لم تكن مضمونة الظفر، ذلك لأن الحزب الجمهورى كان قليل العدد وكان الجمهور فى فلورنسه تحت تأثير دعاية اللاجئين اللمبارديين الذين يحاولون أن يجعلوا من الحركة صورة لطيفة مصغرة منسوخة عن الثورة الافرنسية ، وأما فى الأندية فعدد الجمهوريين الأقحاح كان قليلا ، وقد ازداد الذين يصطادون فى الماء العكر وأخذ الرجعيون ينشطون أملا أن الشر يتفاقم ، وكانت الجماهير تسير وراء كل حركة تبدو ثم لا تلبث أن تنظم إلى الناجحة من الحركات ، ففى مثل هذا الجو المضطرب كان يستحيل على الحكومة أن تعمل مالم تكن قوية قادرة على أن تستغل حماسة الناس وتقودهم نحو أهداف نافعة ، ولكن الرؤساء الثلاثة لم يكسبوا احترام الناس ولا عطفهم ، والواقع أن موقف الحكومة كان محفوفاً بالصعوبات ، فالمعتدلون لم يبدوا أى مساعدة لاستتباب الأمن وحاق بالفقراء إعسار مدقع ، وأخذت الجرائم تزداد وامتلأت السجون ، ونشب اضطراب فى فلورنسه لم يلبث جيرازى أن استطاع بحزمه القضاء عليه والقبض على ناصية

الأمور . وقد تمكنت الحكومة فى شهر آذار من بسط نفوذها وحمل الناس على إطاعتها .

وكان قد تقرر فى طوسكانه أن تجرى الانتخابات للمجلس التأسيسى الطوسكانى فى ٥ — آذار على أن ينتخب فى الوقت نفسه الممثلون للمجلس التأسيسى الإيطالى فى روما ، وهنا اختلف الناس فى أى المجلسين يقرر مصير حكومة طوسكانة القادمة ، فالمعتدلون يدعون أن البت فى المسألة عائد للمجلس الطوسكانى ، وأما الجمهوريون فكانوا يصرحون بأن الوحدة مع روما قد بت فيها وأن المجلس الموحد هو الذى يحق له أن يبت فى القضية ، ومع أن جيرازى فى الظاهر قد قرر الاتحاد الدبلوماسى الجمركى فإنه اتفق ومازينى على أن يؤجل الانضمام الكلى قدر الإمكان ، وكان سهلا استمالة أهل طوسكانه إلى فكرة التأجيل لأن فى الانضمام تفقد فلورنسه مكانتها كعاصمة وتضحى مدينة ليفورنا فى سبيل مدينة جيفيتا فكيا أضف إلى ذلك أن طوسكانه كانت ترغب فى الابتعاد عن مشاكل القضية البابوية ، وقد أعانت هذه الأمور جيرازى على أن يصدر قانوناً فى غياب مونتانلى يترك فيه حق تقرير شكل الحكومة إلى المجلس الطوسكانى .

ونشطت الحركة الرجعية وأخذت تنذر بالقضاء على الجمهوريين والرؤساء الثلاثة ، وكان القرويون الذين يدعوهم (كابونى) بشعب طوسكانه السيد ، يخاصمون أية حكومة تريد الحرب ، فكان من

السهل على الأشراف ورجال الاكليروس أن يستغلوا شعور هؤلاء القرويين فى الحملة على الحكومة التى نفت الدوق وراقبت رهبانهم وهددتهم بالضرائب وبإرسال أولادهم إلى الحرب فى سبيل أمر بعيد المنال ، وهاجمت بعض عصابات القرويين المسلحة فلورنسه وبرانو ، أما سكان المدن فكانوا على النقيض من القرويين ينظرون إلى الجماعات الموالية للامير ولكن لا تطمئن نفوسهم للحكومة ، أما الرهبان فأخذوا يمتنعون من تزكيـة الذين صوتوا للمجلس التأسيسى ، أما الأذكياء من الناس فرغبوا فى أن يظلوا بعيدين خشية ثورة مضادة ، وقد أجل الرؤساء اجتماع المجلس التأسيسى جهد المستطاع ويظن أن الذين اشتركوا فى الانتخابات للمجلس المذكور كانوا أقل من خمس ذوى الحق فى الانتخابات ، وقد أهمل الانتخاب العام للمجلس التأسيسى الإيطالى فى روما ، ولم يسع المعتدلون والرجعيون انتخاب مرشحيهم فنالت الحكومة أكثرية بنسبة اثنين ضد واحد ، وبعد افتتاح المجلس بيومين وردت أخبار نوفّاره فأعلن جيرازى بصراحة أنه ضد الجمهورية ، فما كان من مونتانلى إلا أن أقنع المجلس بإعلان جيرازى دكتاتوراً رغبة منه فى أن لا يضعف الحكومة فى سبيل قضية لا رجاء فيها ، وأصبح هم جيرازى الوحيد حينئذ إنقاذ طوسكانه من استيلاء الأجنبى عليها وأخذ يفكر كآخر تدبير — رغم معارضة الشعب — فى إعادة الدوق الكبير وحمل المجلس التأسيسى على تأجيل البت

فى الوحدة مع روما ، وأجل اجتماعاته اثنى عشر يوماً وناشد الأحزاب أن تترك الخلافات وأن تتحد فى سبيل إنقاذ البلاد ، وبذل جهوداً خارقة للقضاء على كل شغب ، ومع ذلك فإنه لم يلبّ دعوته للتطوع إلا فلورنسه وليفورنه ، ولاحظ جيرازى أن منصبه أخذ يتضعضع وأبى المعتدلون معاضدته واستعدوهم لجلب الدوق الكبير آملين أنه إذا عاد بواسطتهم سيهدئ من نقمة النمسه ويحل المجلس التأسيسى ويضمن لهم تقلد مهام الحكم ، وبينما كانوا يرسمون الخطط لذلك حدث شغب فى فلورنسه ، وذلك أن جيرازى كان طلب بعض الكتائب من ليفورنه ، إما لتجهيزها وتدريبها كما ادعى ، وإما لتقوية موقفه ، وكان سلوك أفرادها وأعمالهم فظة بحيث هيجت الفلورنسيين وهاجموا إحدى الكتائب فى ١١ — نيسان ، فاستفاد المعتدلون من هذا الشغب واستغلوا الجماهير واستولى القرويون الموالون لهم على المدينة ، فأعلن المجلس البلدى نفسه حكومة مؤقتة باسم الدوق الكبير واحتل قصر (بلازو — فيجيو) وطرد أعضاء المجلس ، وكان بإمكان جيرازى أن يستمر على المقاومة فى بيستونه وليفورنه إلا أنه يئس من الحالة والتجأ إلى كابونى .

ومما يدعو إلى افتخار إيطاليه أن الزعماء فى روما كانوا يتحلون بصلابة أشد منها عند غيرهم وقد تألفت فيها لجنة تنفيذية أو إجرائية تقلدت سلطة الجمهورية العليا ، وكان على رأسها الحاكم أرملانى ومن وزرائها الحبر موزاريلّى وهو من الأحرار ، وقد علمت الحكومة

أن أول ما تحتاج إليه البلاد هو الحرية ، حرية التعليم وحرية التنظيم وحرية تنمية واردات الدولة . ويتلخص منهج أرميلليني بقيام إدارة مالية نزيهة وإصلاحات قضائية ، بلدية وتأمين حرية العمل والإشراف العلمانى على التعليم والعدل والمشاريع الخيرية ، ونقل أملاك الكنيسة إلى الأمة ، وقد شرعت الحكومة بتنفيذ هذا المنهج بدراية وثبات . وكان مازينى الذى ألهم هذه التعاليم نائباً بسيطاً ، فتم له ببلوغ هذا المنهج نصف المثل الأعلى الذى كان يحلم به وهو مثل روما المقدسة الخالدة . لكن المنهج لم يتناول تنفيذه جانب مشاريعه الاجتماعيـــة . فأخذ ينتقد المجلس بإضاعة وقته بالمشاحنات الحزبية بينما النمسه واقفة بالمرصاد ، ويقول متى نالت إيطاليه حريتها ، حينئذ وقت وضع الدساتير ، أما الآن فيجب قبل كل شيء محاربة النمسه ووقوف روما الجمهورية بجانب بيمونته الملكية ورغم رفض اليمين والوسط إقتراح مازينى بإرسال النواب للنواحى لاستنهاض الشعب ودعوته للدفاع ، فإن البلاد قد استعدت للحرب بعض الاستعداد ، فلما شاعت أخبار نوفاره كانت القطعات فى طريقها نحو الحدود . حينئذ توجهت جميع الأنظار نحو مازينى بصفته الزعيم الوحيد فى تلك الأزمة . فانسحب موزاريلى وتألفت لجنة ثلاثية من (مازينى وسافى وراميللى) تولت شؤون الحكم ومنحت سلطة غير محدودة لإدارة الحرب والدفاع عن الجمهورية ، وقد أسرع مازينى لإرسال القطعات ولكنها قبل أن تصل إلى

ضفاف نهر بو وردت أخبار الهدنة فقضى بذلك على آخر أمل فى الاشتراك فى الحرب فى لمبارديه . وبعد أن ضاعت فرصة إنقاذ إيطاليه الشمالية تفرغت اللجنة الثلاثية للإصلاحات الداخلية .

وكانت آخر الإصلاحات تتعلق بالمشكلة العويصة أى مشكلة علاقة الكنيسة بالدولة . ولم تتخذ كلمة الاكليروس فى معارضة الجمهورية ، فالحبر موزاربلى مثلا رفع القناع فى المعارضة ، وأما الحبر فانتورا فبعد أن حاول عبثاً فى تأليف البين بين البابا وأهل روما إنحاز إلى أهل روما . ولما تأكد الرهبان ورجال الدين فى القرى من أن إصلاحات مازينى تزيد فى رواتبهم إنحازوا إلى جانبه ماعدا بعض الرهبان فى بعض المناطق الزراعية الذين أبوا مباركة نكاح الذين اشتركوا فى الاقتراع مؤيدين . ومع أن الحكومة أصرت على أن يخضع الاكليروس للدولة فإنها حالت دون اضطهادهم وعاملتهم بالحسنى حتى أنه ترك أسقف جيفيتا فيكيا يتآمر مع جايته واكتفى بنفى أحد إخوان البابا إلى خارج الحدود حين شوهد يحرض الناس على الخيانة . وكانت الجرائد البابوية تقرأ بحرية وكان مثل مازينى فى هذه السياسة « تشدد فى المبادىء وتساهل مع الأشخاص » . وطبيعى أن يؤدى هذا التساهل إلى ضعف فاضح فى الإدارة . وكان أعداء الجمهورية يقبضون على ناصية الشؤون العامة ، وكان راميلليني (صفراً) وسافى وديعاً وفيلسوفا ، أما مازينى فتعوزه الكفاية فى الشؤون المالية والإدارية ، فلم يكن

بمقدور هذه السلطة الإجرائية العاجزة أن تطهر البلاد من الجرائيم .

وراحت أحقاد عهد جرجوار القديمة تتحين الفرص لتتفجر ، وظل أشد الموظفين فساداً مسترسلين فى فسادهم ، واستعد المتطرفون للإستيلاء على الحكم بعد أن غاظهم ضعف الحكومة . وأخذ البعض من متطوعة غاريبا لدى يشاغبون ، ومع ذلك فقد استطاعت الحكومة أن تقبض على ناصية الحكم بمساعدة الحرس المدنى . بيد أن الغموض الناشىء من طول المفاوضات السرية وتوهم الناس بأن هناك مؤآمرة تحاك فى المدينة وبتحريض بعض الرهبان لم ينفع احتياطات الحكومة فى توطيد النظام ، فانتشرت الفوضى فى روما مدة من الزمن أعدم فى أثنائها ثمانية رهبان لإطلاقهم النار على الجنود وثلاثة قرويين بتهمة التجسس وخرب بعض الأهلين حدائق البابا احتجاجا على لين مازينى .

أما فى ايالتى الرومانى والمارك فحدثت وقائع مؤسفة جدا ، إذ شجع ضعف الحكومه المجرمين فيها على القتل بالناس ، فحدثت عصابات صغيرة تغتال الموظفين وتفرض الغرامات على الأجانب ، أما فى انكونه فقد بلغ الإرهاب غايته ، إذ اغتيل ثمانية وعشرون رجلا من جماعة السنانفيديست ، ومع ذلك كله فقد كانت الجمهورية تلقى تعضيدا يسهل عليها أمر الاستمرار فى الحكم ، ولا يفوتنا أن نعلم أن الجمهوريين من ذوى المبدأ كانوا قلائل ، وفضلا عن ذلك فإن عددا قليلا من هؤلاء كان يجهل مثل مازينى الأعلى ، أما الأكثرية

فكانت لا تبالى بمبدأ ، ولكنها سئمت من التبدلات السياسية واغتبطت بأنها تخلصت من حكومة الرهبان ، ولم تكن راضية عن ضعف المعتدلين وترجرجهم وتريد التملص من حكم الاكليروس مهما كلفها الأمر ، فكان ذلك سر انحيازها إلى الجمهورية باعتبارها الحكومة الوحيدة التى تؤمن هذه الغاية ، وبعد أن تمت الانتخابات البلدية فى جو صاخب انحازت المجالس البلدية باستثناء اثنين منها إلى جانب الجمهورية ، ولكن الرهبان ظلوا يحرضون الناس على الاستياء وظل الجيش قلقا ، وظلت الخيانة تنسف الإدارة ، وأخذ البعض من المعتدلين يتآمرون بنشاط ، أما كتلة القرويين فرجحت بالحكومة التى انقذتهم من ظلم السنانفيديست ، أما الطبقة الصناعية وصغار الملاكين الذين أخرجو أكثر النواب من بين صفوفهم فقد أظهروا صداقتهم للجمهورية ، ولا تنس أن أكثر الحرس الوطنى وصغار التجار كانوا يحبون الجمهورية لذاتها .

وحينما كسبت الجمهورية عطف أهل روما على الصورة الآنفة الذكر ، أخذت الدول الأوربية تستعد للقضاء عليها ، وقد عزم البابا على العودة إلى عاصمته بصفته متبوعا مطلق التصرف يفوق فى ذلك جميع اسلافه . وكان انتونلّى يعتمد على الرجعيين فى روما وعلى عملائه المنبثين فى بعض المناطق ووزعت مناشير تطالب بالقضاء على الأحرار ، ولكن الحرس الوطنى استطاع أن يقمع حركات العصيان التى حدثت فى بعض الأنحاء ، ولكن اضطرابا أشد خطورة

نشب فى أطراف (اسكولى) حيث قام أحد الرهبان يحرض القرويين على حرب مقدسة ويدعوهم إلى النهب والحرق . وكان مونتانلى يعتمد خصيصاً على أنصار البابا فى البلاد الأجنبية وترمى سياسته إلى وضع البابوية تحت حماية الدول الملكية وقد تحاشى جانب فرنسه إلاّ أن فرنسه لا يمكن تحاشيها وكانت قد اقترحت فى ١٨ — شباط احتلال ممتلكات الكنيسة من قبل النمسة وأسبانية ونابولى وفرنسه ، ، فوافقت الدول الملكية الثلاث على هذا الاقتراح فوراً ، وقد تأهبت أسبانيه قبل ذلك لإرسال قوة ، وأخذت القطعات النابولية تسرح وتمرح بالقرب من الحدود الجنوبية وتشجع العصاة فى أسكولى ، أما القائد النمسوى فقد احتل قراره وأخذ يستعد للتقدم نحو (بولونيه) .

وظلت فرنسة تؤيد بيمونته فى احتجاجها على كل تدخل فى شؤون ايطاليه إلا أن الاتجاه الرجعى المحافظ فى فرنسه قيد يد الحكومة ، وكان (فاللو) يمثل الكاثوليك المفرطين فى الوزارة ، وبينما كان الحزب الجبلى يرسل تحياته إلى الجمهورية الجديدة كان الرأى الفعال فى فرنسه يسند فاللو ، ومع أن الرأى العام الافرنسى كان يقول ببقاء السلطة الزمنية من حقوق البابا فانه فى الوقت نفسه كان خصما للنمسه ، وقد عجلت أنباء نوفارة فى نشاطه وكان لويس نابليون يريد اعلان الحرب فوراً مستندا إلى الحزب الجبلى وحزب الوسط ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى بلوغ أغراضه الشخصية

والحصول على تأييد الكاثوليكيين ، وقد استغل الوزراء حماسة الشعب وقرروا احتلال جيفيتا فيكيّا وإعادة البابا إلى عاصمة ملكه رغم أهلها ضاربين ببياناتهم السابقة عرض الحائط ، وسموا فى الوقت نفسه إلى أخذ تصريح من البابا يؤيد فيه الدستور ، وقد وصلت القوة الموفدة لتنفيذ القرار إلى جيفيتا فيكيّا فى ٢٤ — نيسان بقيادة أودينو . فاصدرت اللجنة الثلاثية الأوامر بمقاومة حركة النزول مهما كلف الأمر ، بيد أن المدينة لم تكن فى حالة صالحة للمقاومة ، ومع أن أودينو حاول الوصول على موافقة المجلس البلدى بمعسول الوعود إلا أنه بمجرد ما أنزل قواته إلى الساحل رفع القناع عن نياته ، ورغم التعليمات الصادرة إليه بأن لا يتقدم نحو روما ما لم يكن واثقا من ترحيب أهلها ومساعدتهم اياه ، ولكنه اعتماداً على مزاعم انصار البابا اعتقد أنه لن يلاقى أى مقاومة فعزم على الزحف على روما وقد ارتبكت اللجنة الثلاثية والمجلس من هذا الحادث ، وكان مازينى وشارل بونابارت لا يزالان يعتمدان على إخلاص الجمهورية الافرنسية ، وكان النواب مترددين فى تقرير التفاهم ولكن حين جاء مندوب أودينو يقول بأن سيده إنما ينوى إعادة البابا إلى عرشه زال كل تردد ، واعتزم المجلس المقاومة مهما كلف الأمر وهاج الرأى العام ، وطالب بقطع المفاوضات ، وغدا لا يحتمل رؤية الجنود الافرنسيين يجتازون أسوار روما حتى إذا اعترفت فرنسه بالجمهورية ، وأصبحت الحرب لا مناص منها وظن أودينو أن

الطليان لن يقاتلوا فباشر هجومه فى ٣٠ — نيسان بغية الاستيلاء على المدينة بالقوة ، وكانت قوة كل من الخصمين نحو عشرة آلاف ، فحارب الافرنسيون بشجاعة إلا أنهم استصغروا شأن عددهم فلقوا منه خصما لا يقل عنهم شجاعة فضلا عن أنه يحارب مؤمنا بقضيته فانكسرت الفرقتان الافرنسيتان بعد أن خسرتا الف رجل وولتا الأدبار مسرعتين خشية انقطاع خط الانسحاب عليهما ، وطلب غاريبالدى حينئذ من اللجنة الثلاثية بالحاح موافقتها على مطاردة الخصم ، إلا أنها كانت ما تزال تتوقع التفاهم وتخشى عرقلة مساعى الحزب الجبلى الذى يعمل لمصلحتها فى باريس ، وبذلك لم تنجح لا القوة ولا الخديعة ، واقتنعت الحكومة الافرنسية بأنها خانت المبادئ الجمهورية ولجأت إلى الغدر الذى أسخط عليها السياسيين ، ومع أن (جول فافر) أسقط الحكومة الافرنسية فى المجلس التأسيسى غير أن لويس نابليون كان يعلم أن الانتخابات المقبلة سوف تسفر عن أكثرية عظيمة محافظة تكون بجانبه ، وقد جعل من نفسه فى لباقة المدافع عن شرف الجيش وكتب إلى أودينو مزدريا بتصويت المجلس وأرسل دى لسبس لمفاوضته حكومة روما ، وفى ٣٠ — أيار اتفق مع اللجنة الثلاثية على تفاهم ، وعهد فيه دى لسبس بالإقلاع عن نية الاحتلال ، إلا أنه يرفض الاعتراف بالحكومة الجمهورية . وأوشك أن يتم لولا أن مناورات الحكومة الإفرنسية الخفية جعلت نشوب الحرب ثانية أمراً لا محيد عنه .

ولما تمت الانتخابات وجاءت الأكثرية محافظة فى جانب لويس نابليون أصبحت الحكومة فى موقف تستطيع معه أن ترفع القناع عن نياتها بيد أن القضية أصبحت وقتئذ تهم الدول الكاثوليكية كلها ، وأخذت كل واحدة منها تسعى لتسبق غيرها فى الزحف على روما . فالأسبان كانوا على أهبة انزال خمسة آلاف جندى فى (فيوجينو) . أما جنود نابولى فقد احتلوا أطراف بالبسترينا إلى أن هجم عليهم جنود روما وهزموهم إلى ما وراء الحدود ، أما القائد النمسوى فقصف مدينة بولونية واضطرها إلى التسليم بعد أن دافعت دفاع المستميت ثمانية أيام

وبعد أن قاومت أنكونه شهراً شرع النمسويون فى حصارها ، ولو أطلقت أيدى أهل روما فى حركاتهم لاستطاعوا أن يوجهوا قوات فائقة نحو القائد النمسوى ويطوقوه . وكانت فرنسه فى تقييدها لحركات جيش روما خير حليفة للنمسه . ولما وردت مدافع الحصار إلى جيش أودينو تجلت مقاصد الحكومة الافرنسية على حقيقتها . فبعد أن أقام أودينو العراقيل فى سبيل نجاح المفاوضات استولى على مواطن الدفاع عن شمال المدينة ، وحينما تلقى دى لسبس من باريس أمراً بالعودة ، استلم أودينو أمراً باحتلال روما بالقوة .

وباعلان الحرب انتهى عهد المفاوضات الغامضة الطويل . وكانت الحكومة منذ أيام قد فقدت سلطتها على المدينة وعاد غاريبالدى من فلترى حانقاً لأن اللجنة لم توافق على استثمار النصر

وتأذن له بالتقدم نحو نابولى ، وطلب أن يعين دكتاتوراً لأنه كان دائم الاحتقار لحكومة روما ويعتبر مازينى مهذارا . وبينما كان أودينو يملك ٣٠ — ٤٠ ألف جندى ومدفعية حصار قوية لم يكن لدى أهل روما إلا ثلاثة عشر ألف جندى ناقص العدة ، أكثرهم من دولة روما ومن جملتهم ثلاثة آلاف من الحرس الوطنى والمواطنين المسلحين . وقد باشر أودينو الحركات بالفور حسب عادته . وكان قد وعد بأن لايشرع فى الهجوم إلا صباح اليوم الرابع من حزيران ولكنه فى الليلة الثانية من الشهر . وفى نهار الثالث باغت نقطتين من ستارات الرومانيين ، واشتد القتال فى الحدائق والكروم . ورغم كثرة الجند الافرنسى الفائقة استرد الرومانيون مبانى المصائف عدة مرات ، بيد أن البطولة وحدها لاتسد النقص الناجم عن قلة العدد واخطاء غاريبالدى . وبعد قتال دام ثلاثة عشرة ساعة أخليت المواضع ، وإذا كان الرومانيون قد خسروا بذلك الأرض خارج أسوار المدينة ماعدا معمل فاسجيللو ، فانهم أنقذوا المدينة من المباغتة وألجأوا الافرنسيين إلى محاصرة المدينة حصاراً منتظماً معرضين إياهم إلى مرض الملاريا الذى قد يضطرهم إلى رفع الحصار إذا طال أمده ، فالقصف الذى لارحمة فيه ولا هوادة كما كان يتوقعه الكرادلة كان مظنوناً أن يلجىء المدينة إلى التسليم السريع وأن المدينة إذا لم تنجد من الخارج فإن استلامها يتوقف على الوقت فقط ، إلا أنه على الرغم من تناقص الذخائر فإن أحداً من أهلها

لم يطلب الاستسلام وصبر السكان على القصف من دون أى تذمر وكان فنتوراً قد حذر الرهبان قائلا « إذا لم تسر الكنيسة مع الشعب فالشعب يسير من دونها لا بعيداً عنها فحسب بل سيناوئها » ولم تكن قلة الرجاء فى المقاومة لتخفف من حماسة الناس وحميتهم ، وقد تقدمت ستة آلاف امرأة للخدمة فى المستشفيات وتجلت البطولة الإيطالية فى الدفاع عن عاصمة إيطاليه ، فهذا غاريبالدى ورفقاؤه الذين حاربوا بجانبه فى أمريكه يجاهدون وهذا (مانورا) الفتى الميلانى مع القناصين الماهرين من أهل لبارديه ، وهؤلاء الأشراف يقاتلون إلى جنب أبطال الأيام الخمسة ومتطوعة الحرب فى التيرول ، أما ماميلى الشاعر ودانديلو وبيساكانه وبيكسيو وميديجى وكثير من الفتيان الأبطال ، فمنهم من مات فى سبيل روما ومنهم من عاش ليصبح من قادة المعركة فى المستقبل ومنظميها . وكثيرون من هؤلاء لم يكونوا من الجمهوريين ، وكان البعض منهم من الأشراف ، إلا أن حب الوطن وسحر روما ساقاهم للقتال فى المعركة الأخيرة فى سبيل إيطاليه ، وكانت الحكومة جديرة بالمدافعين عنها وقد حافظت على الأمن بصورة تامة طول مدة الحصار وأدارت الشؤون المالية بدراية ونزاهة ، ورغم قلة الغذاء فالمجاعة لم تنتب المدينة . وأظهر مازينى نشاطاً كبيراً وآراء صائبة ، واستطاع أن يبث فى الملتفين حوله حماسته وآماله . وكانت الحكومة تأمل أن توفق الحزب الجبلى فى باريس فى حمل الحكومة على الأخذ

بسياسة المظاهرة الإيطالية وأن انجلتره تتدخل . بيد أن بالمرستون كان تحت رحمة الكُويد بنيسيت وكانت الثورة التى شبت فى باريس فى ١٣ — حزيران آخر جهد قام به الحزب الجبلى .

وبعد مرور ثمانية أيام على محاصرة روما استولى المهاجمون على المعاقل وانسحب المدافعون إلى جدار أوريليانوس بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ، ولم يترك مديحى معمل فاسيللو إلا بعد أن خسر ثلثمائة رجل من رجاله ، أما مانورا فقاوم قوات تفوقه أضعافاً مضاعفة ، ولما لم يبق لدى المدافعين سلاح وحارب الأبطال الفتيان بسكاكينهم إلى أن خر رئيسهم صريعاً . وأراد مازينى أن يقاوم أيضاً إلا أن غاريبالدى صرح فى المجلس التأسيسى بأنه لارجاء فى القتال ، وقرر النواب إنهاء حرب لافائدة منها ، ودخل الافرنسيون المدينة وكان الأهلون حين مرور الجنود بالطرقات يسخرون منهم ويهتفون هتافات عدائية لهم . وغادر مازينى روما مترقباً الفرصة لاستئناف القتال ، أما غاريبالدى فطلب إلى الذين رفضوا التسليم أن يلحقوا به على أن يعلموا بأنه ينتظرهم بالجوع والعطش والسهر . فسار وراءه ثلاثة آلاف يطاردهم الافرنسيون والاسبان والنمسويون ثلاثة أسابيع وسامهم القرويون خسفاً وأخذ عددهم يقل بمن يهرب منهم يومياً . ثم وصلوا إلى سان مارينو حيث تفاهم غاريبالدى مع السلطات على أن لا يصيب رجاله سوء ، ثم سافر مع مائتين

من أصحابه الأوفياء وزوجه (أنيتا) إلى (سسينه) وأبحروا منها إلى البندقية بيد أن السفن النمسوية ضبطت بعض قواربهم واضطر البعض الآخر يلجأ إلى الساحل وماتت (أنيتا) فى غابة كوماجيو فلاقى غاريبالدى تشرداً منقطع النظير فى شبه الجزيرة التى كانت مراقبة من كل جهة ، وقد خصص مبلغ عظيم لمن يقبض عليه .

oberkandl.com

الفصل التاسع عشر

البندقية فى عهد إدارة مانين

آب — ١٨٤٨ : آب ١٨٤٩

وبعد أن خضعت صقلية وطوسكانه وروما لم يخفقْ علم الحرية الإيطالى إذا استثنينا بيمونته إلا فوق مدينة واحدة ، وهى البندقية ، ظلت هذه المدينة تزدرى بشوكة الامبراطورية النمسوية من دون أن تنال أية مساعدة منذ شهر آب فى السنة المنصرمة ، ولم يطل عهد الحكومة الشبه بيمونته بعد صدور قرار الانضمام فى شهر تموز أكثر من شهر واحد ، ولما وردت أخبار هدنة سلسكو لم يكن قد مضى على وصول المندوبين البيمونتيين أكثر من خمسة أيام ، وكانت هذه الهدنة قد انهت حكم بيمونته القصير المدى ، وقد أدى الهياج العام الذى حدث بعد هذه الأخبار إلى انسحاب المندوبين ، فأصبح مانين دكتاتوراً بالفعل ، فسارع إلى إلغاء قرار الانضمام بعد أن خانت بيمونته البندقية بعقدها الهدنة ، وأعلن بأن حكومته وقتية ، وأن المجلس التأسيسى الإيطالى سوف يبت فى مصير المدينة فى المستقبل ، وكانت حكومته جمهورية فعلا ، وكان أول ما يشغل البال فى ذلك الحين إيقاف النمسويين عند حدهم

وحين رفضت البندقية بإباء التخلى عن حريتها أجابت النمسه بتطويق المدينة .

وكانت الهدنة قد منعت البيمونتيين من إسداء المعونة لها وإن ظل أسطولهم راسياً خارج نطاق الحصار ، وكان مانين يتوقع لبلده خيراً من انجلتره وفرنسه ، بيد أن بالمرستون أعلن بصراحة أن انجلتره لا تشترك فى حرب ما ، وأنه سيبذل جهده سياسياً لإقناع النمسه بالتنازل عن مطالبها بشأن المدينة ، أما موقف فرنسه فكان لا يختلف عن موقفها السابق المزرى ، فبينما كان ساستها يصرحون من جهة بأنهم لم يتخلوا عن البندقية كانوا من جهة أخرى يفاوضون النمسه على سلم لا يبقى للمدينة سوى حكمها الذاتى ، وظل مانين يعتمد على مظاهرة فرنسه رافضاً كل حل يربط البندقية بامبراطورية النمسه ، ولما أكد له لويس نابليون فى شهر شباط أن لفرنسه من المشاكل الداخلية ما يحول دون دخولها فى حرب ما ، اقتنع مانين بأن البندقية يجب أن تعتمد على نفسها ، وأنه لا ينقذها إلا نصراً إيطالياً أو هنغارياً عدواً للنمسا ، ومع أن نطاق الحصار أخذ يشتد طول الشتاء فإن البندقيين ظلوا لا يثبط أى اخفاق عزائمهم أو يوهن جلدهم ، واستولى النمسويون على القسم البرى بأجمعه ماعدا رأس جسر (مالفيرا) وعلى الرغم من وجود الأسطول الافرنسى والبيمونتى ، فإن الحصار قد ضيق الخناق على المدينة ، فانقطعت صلتها بالخارج نحو ستة أشهر ، وكانت دار الصناعة

ما تزال تحتوى مقداراً كبيراً من العتاد الاحتياطى ، وكان القائد به ينفخ فى جنده حماسة لا تقهر ، وقد اختار للعمل هيئة أركان حرب بارعة ، ومع أنه خسر جنوده النابوليين الذين رجعوا إلى بلادهم بعد الهدنة ، فقد ظل تحت إمرته نحو عشرين ألفاً ، من أربعة عشر ألفاً من أهل البندقية والباقى من أهل روما وشمالى إيطاليه .

وقد تجلت شجاعة الحكومة والشعب فى أجلى مظاهرها ، وكانت مهمة مانين ورفقائه فى اللجنة الثلاثية تأمين إعاشة مائة وثلاثين ألفاً من النفوس ، وذلك يقتضى يداً حازمة ولطيفة فى آن واحد ، وقد دلت الحوادث على أن البندقيين كانوا جديرين برئيسهم ، وكانوا يرون القتال جهاداً مقدساً ، فلذلك يسارعون إلى تلبية الداعى بتقديم ما لديهم ، فقدم الأغنياء دراهمهم عن طيبة خاطر ، ولما طلبت الحكومة آنيتهم لتصنع منها النقود لبوا الطلب بحماسة ، وأخذت المراسح تتبرع بوارداتها لشراء سفينة تجارية وأخذ الطلاب يقتصدون من غذائهم ، وكنت تقرأ على جدار المدينة ، « البندقية تطلب الدراهم من الكنائس والحلى من النساء والبرنز من النواقيس والنحاس من المطابخ والحديد من قنابل العدو ، كل هذا ولا الخرواتيين من أهل خرواتية » ، وكانت حادثة نوفارة قد أضاعت آخر رجاء فى المساعدة من الخارج ، ومع ذلك لم يخطر ببال أحد الاستسلام إذ قرر المجلس على أثر ورود أخبار نوفاره المقاومة مهما كلف الأمر ، ومنح مانين سلطة غير محدودة ، وكان النمسويون

يستعدون للهجوم وأخذت أعمال الخنادق تقترب يوماً فيوماً من حصن مالفيرا ، وبعد أن قاوم الحصن هجوماً عنيفاً فى أواخر آيار ثلاثة أيام ، أصبح ركاما من الحجارة وانسحبت حاميته أمام عدو يفوقها عشرة أضعاف ، ولم يستول اليأس مع ذلك على المدينة ، فأقر المجلس المقاومة مهما كلف الأمر ، وشاهد أهل البندقية فى حزيران قنابل العدو تسقط على الجانب الغربى من المدينة ، وبعد ستة أسابيع حسن النمسويون رميهم وأخذت نارهم تصيب ثلثى المدينة فأخلى أكثر الحصون ، وانتشر فى المدينة مرض التيفوس والهيضة وقضى على أربعة آلاف من الناس ، ولم يتذمر الشعب من جراء ذلك وظل يأمل خيراً رغم أن بيمونته وفرنسه وهنغارية وروما تخلت عنه ، وقد قام أصحاب الزوارق بضروب من البطولة مدهشة وذلك باختراقهم خطوط العدو للحصول على بعض الذخيرة أو بعض الأخبار ، وتسابق الصبيان لاقتناص قنابل العدو المهيأة للانفجار لتسليمها إلى دار الصناعة وأخذ الناس يقولون : « القنابل ولا الخرواتيين » .

ولم يحدث أى شغب حتى فى أشد أيام الضيق الأخيرة ، ولما أدرك مانين أن كل رجاء قد ضاع أصبح يميل إلى قبول ما عرض من الحكم الذاتى ، ولكن بما أن شروط النمسويين كانت غامضة فإن المجلس قد رفضها بما يقرب من الإجماع ، ولكن الذخائر لم تكن تكفى أكثر من نهاية شهر آب ، وأخذ مانين يخشى بطش

النمسويين فيما إذا استولوا على المدينة من دون قيد ولا شرط ، وكان شعور الشعب ضد الاستسلام شديداً إلى درجة هددت سلطة مانين على المدينة . وأخذ توماسو يحيك الدسائس على رأس جماعة متطرفة تظن بأن الذخائر لا تزال محفوظة فى محلات خفية وتطالب بالاندفاع بقوة كبيرة ، بيد أن بيه عاضد مانين بكل عزم حتى خوله المجلس أخيراً بأكثرية ضئيلة الصلاحية اللازمة للمفاوضة ، وفى ٢٢ آب استسلمت المدينة بعد أن كبدت النمسويين خسائر كبيرة تنوف على ثمانية آلاف قتيل وميت بمرض . ومع أن الخرواتى المنبوذ قد داس حرمة المدينة فإنها قد خلدت ذكرها بأعمال البطولة واستحقت التمجيد . أما مانين فقد ذهب بعد كل تلك المآثر إلى المنفى لا يملك شيئاً وعاش فيه عيشة المفكر العظيم بعد أن مثل فى المدينة دور الرجل العامل .

وباستسلام البندقية ضاع كل شىء وابتليت البلاد بحركة رجعية عنيفة ظالمة همها الانتقام والاضطهاد . وفى خلال سنة واحدة خابت الآمال العظيمة التى كادت أن تتحقق ، وأخذ الناس يتساءلون عن الأسباب التى أدت إلى هذه النتيجة المحزنة ، وقد أيقنوا أن السبب الأول هو تفوق قوة العدو مع أن هناك أسبابا أخطر من ذلك أدت إلى هذا الفشل اندمجت فى طبيعة الحركة . فكانت حركة سنوات (١٨٤٦ — ١٨٤٩) ترمى إلى الاستقلال فقط من دون المطالبة بالوحدة وحتى أنها لم تكن تسعى إلى الاتحاد كل

السعى ، وكان عدد أنصار الوحدة قليلا جداً . أما جمهورية مازينى الموحدة فسرعان ما أصبحت حبرا على ورق ، وأما القلائل من الرجال الذين ارتأوا وحدة ملكية بزعامة شارل البرت فأظهروا عجزهم عن استكثار الأنصار ، ولم يفكر الالبرتون الاقحاح فى ضم نابولى إلى بيمونته وفكروا قليلا فى ضم الوسط ، ولم يتجاوز تفكير رجال الحكم فى بيمونته وادى بو وإيالة الرومانى وأعرضوا عن صقلية بينما كانت مستعدة للانضمام إلى بيمونته ومع كل ذلك فإن الخوف من توسع بيمونته ولّد شعوراً عميقاً من الشك ورد الفعل كثيراً ما استغله الدموقراطيون وأنصار الملوك الآخرين ، وقد تآمر مونتانيلّى ضد ضم لمبارديه إلى بيمونته . أما فى لمبارديه نفسها فقد بذل الدموقراطيون والجمهوريون جهدهم للحيلولة دون الانضمام ووضع رجال الدولة الأحرار فى نابولى الخطط لتوسيع ممتلكات فرديناند .

ومما زاد فى الطين بلة تلك الاختلافات بين المعتدلين والدموقراطيين أضف إلى ذلك ندرة الزعماء الأكفاء الذين لو تيسر وجودهم لذللوا كثيراً من هذه الصعوبات ، ولا غرو فإن بلاداً حديثة العهد بحريتها لا تستطيع أن تخلق رجال دولة شعبيين .

ولما كان الرأى العام لا يتحمل أن يرى وزراء الاستبداد فى الحكم ، فلم يكن مناص إذن من أن يتوجه رجال الأدب الذين

قادوا الحركة الوطنية ، فكان الوزراء الأولون فى سنتى ١٨٤٨ — ١٨٤٩ بلا استثناء من الرجال الذين اشتهروا بأقلامهم ولم يكونوا مزودين بثقافة سياسية كافية ، أضف إلى ذلك كله أن الموظفين كانوا ضد الثورة . أما الإدارة فى طوسكانه وروما ونابولى فكانت خصيمة لكل حدث جديد . وطبيعى أن تسير الثورة التى يتخلى عنها الموظفون وتعاكسها الإدارة فى طريق وعر .

الفصل العشرون

بيمونته بعد نوفاره — الارتجاع

١٨٤٨ : ١٨٥٠

لقد كانت نوفاره كارثة عظيمة نزلت ببيمونته وهى على فداحتها ما كانت لتجيز لبيمونته أن تستسلم وأن تترك المملكة تحت رحمة الغالب ، فالجيش رغم ما أصابه من الذعر وفتور الهمة كان لا يزال سليما . وكانت فرنسه على أهبة التدخل ولو اجتازت قواتها الحدود لاضطر راديتسكى إلى الانسحاب مسرعاً ليحتمى بالقلاع الأربع . وكانت بيمونته قادرة على إطالة أمد المقاومة وراء الكسندريه وتورينو ورغم الغضب والذعر والارتياب من الخيانة فإن الهتاف كان لا يزال يدوى عالياً بتأييد المقاومة واستنكار الخضوع ، إذ كيف يصح لبيمونته أن تستسلم والعلم المثلث الألوان ما يزال يخفق فوق روما والبندقية وبولونية وبرسيه .

ولما أطلعت تورينو على خبر الانكسار أصدر المجلس النيابى قراراً يدعو فيه إلى التجنيد العام واستغل الدموقراطيون اسم شارل البرت ودعوا الشعب إلى الاستمرار على المعركة التى بدأ بها الملك الوطنى ولكن ذلك كله لم يحل دون عقد الهدنة ، ولما علم الناس

شروطها التى تتضمن احتلال الكسندريه موقتاً وسحب الأسطول الرأسى فى البندقية أنكر الحزب القائل بالحرب الهدنة ، وعدها المجلس النيابى عملا منافياً للدستور . أما فى جنوه فقد أدى الارتياب من الخيانة إلى الثورة . فباغت أهل جنوه الحصون المحيطة بالمدينة واستطاعوا أن يستولوا عليها بحجة الدفاع عنها ضد الهجوم النمسوى الموهوم ، فاعتزمت الوزارة الجديدة التى تولت الحكم فى عهد الملك الفتى فيكتور عمانوئيل الثانى أن تضرب أهل جنوه العصاة وساقت عليهم الجند بقيادة لامارمورا ، وبعد قتال استمر يومين خضعت المدينة . ولا ريب فى أن هذا العمل بادرة مخزية ، تشين بسمعة حكومة بيمونته الجديدة لقد كان بين رجال بيمونته من كان يفكر فى إمكان المقاومة وأنها قد تنتهى بالفوز ولا سيما لأن خسائر الجيش كانت قليلة فضلا عن أن الفرقة اللمباردية كانت لا تزال سليمة وقوات مارمورا لم تشترك فى القتال إلا فى جنوه ، وقد يدفع عزم المستميت إلى النصر ، ولو أصرت فرنسه على سياسة الحياد ولكن لقاء هذا يقول رأى آخر بأن استئناف الحرب قد تؤدى البلاد إلى احتلال تورينو وإلى اشتداد الكارثة ولم تكن بيمونته مستعدة لمواجهة كل هذه الاحتمالات ، فالمؤامرات الرجعية تحاك بين الجنود والقرويين والجيش أصبح لا يميل إلى استئناف القتال ، وكانت الحرب بنظر المعتدلين والرجعيين عبارة عن غلطة فاحشة ارتكبها الدموقراطيون ،

ولم يكن المعتدلون والرجعيون يشعرون بأى عطف نحو الجمهوريين الذين كانوا يجاهدون فى روما والبندقية فى سبيل شرف إيطاليه . على أن هذا لا يمنع القول بأن المعتدلين كانوا كالدموقراطيين عازمين على أن لا يقبلوا أى شرط يمس بكرامة الأمة وكانوا يؤمنون كمنافسيهم برسالة بيمونته ويحملون لحلفائهم اللمبارديين الشعور الحماسى نفسه ، وكانت أكثرية البيمونتيين عازمة على القتال إلى آخر نفس بدلا من الخضوع لشروط مخزية تمس بمستقبل بيمونته . وكان الملك الفتى يمثل بشخصه عزيمة الأمة الباسلة وكان يحقد على النمسه قائلا « أعطونى أربعين الفاً من الجند أفسخ الهدنة غداً » . ولكنه اعتزم قبول السلم إذا كان شريفاً .

وفوجئ الناس فى ٢٦ إذا بتبديل وزارى وخلف رتازى الذى نبذه المعتدلون لوناى وهو من المحافظين من أهل صافو وكان معروفاً بمعارضته للدموقراطيين . فحل لوناى المجلس وصدرت الأوامر باجراء انتخابات جديدة . وفى أوائل أيار خلف لوناى دازجليو وكان شعاره « لا حرب ولا عار » وأنه إذا خير بين الأمرين فإنه يرجح الحرب ولا يريد أن يضحى باللاجئين مهما كلف الأمر . واستمر على سياسة سلفه المعارضة ضد الأندية ، وكادت المفاوضات التى جرت بعد الهدنة تنقطع بسبب الشروط الثقيلة التى فرضها النمسويون ورفض بيمونته إياها . وكانت النمسه عازمة على عقد الصلح على أية صورة بشرط أن ترضى حكومة

فيكتور عمانوئيل الثانى بتعديل الدستور والاتفاق معها فتسلم بذلك من دفع غرامة حربية وتضم أيالة بارمة إلى بيمونته ، إلا أن الملك ووزراءه لم يلبوا الطلب ، ولما طالبت النمسه بغرامة حربية تبلغ (٢٣٠) مليوناً من الليرات وحل اللجنة اللمباردية كان جواب (لوناى) لها أنه لا يفاوض ما لم يعلن الامبراطور العفو عن رعاياه الطليان ويتخلى عن دعواه بالسيادة على دوقية لمبارديه . ولما رفض النمسويون هذه المطالب واحتلوا الكسندريه قطعت الحكومة المفاوضات وطلبت توسط فرنسه وانجلتره .

ولم يكن حينئذ تفاهم أوربى على التدخل بين الغالب والمغلوب وأراد نويس نابليون أن يعلن الحرب بعد حادثة نوفاره على أن يحتل إيالة صافويه ومدينة جنوه مكافأة له على صنيعه ولكن حكومة بيمونته لم ترغب فى دخول القطعات الافرنسية فى أرض بيمونته إلاّ فى آخر لحظة . ومع ذلك فإن دول الغرب قامت بمساع جدية فى فينا وكانت النمسه منهمكة فى مشاكلها المالية وبالثورة الناشبة فى هنغارية والبندقية بحيث عجزت عن احتمال هذا الضغط ، فأخذت الكسندريه واستأنفت المفاوضات وظل الفريقان عند رأيهما لأن دازجليو كان لا يريد سلماً لا تكون فيه ضمانة لحياة اللمبارديين . وكان النمسويون يتوقعون قيام حركة رجعية فى بيمونته . وفى شهر آب قررت وزارة فينا بضغط فرنسه منح عفو شبه عام وتخفيض الغرامة إلى (٧٥) مليونا بشرط أن يتخلى الملك عن بيازنسه . ثم عرضت

المعاهدة على المجلس المنتخب حديثاً ، وقد دلت الانتخابات على أن البلاد لم ترحب بوزارة لوناى وكان أكثر النواب من الدموقراطيين رغم أن نواب العاصمة كانوا من المعتدلين والرجعيين وعليه فإن المجلس قد ورث الحرب عن النواب القدماء وبانتخاب (بارينو) لرئاسة المجلس أظهر النواب نياتهم وكان الجميع يدرك بأن المعاهدة لامناص منها ولارغبة له فى رفضها ومع ذلك فإن النواب عدّوا بعض موادها مخزية لأنها وإن كانت تصون أرض بيمونته إلا أنها تحول دون المطالبة بالتوسع . وحاول عبثاً بالبو إقناع المجلس بقبول المعاهدة باحتجاج صامت . وكان العفو قد استثنى مايقارب مائة شخص من اللمبارديين والبندقيين وكان المجلس يخشى مطالبة النمسه بتسليمهم إياها . وكان المجلس قد أقر اقتراحا بمنح الجنسية لجميع الطليان المولودين فى حدود الدولة البيمونتيه . ومع أن الوزراء كانوا قد اشتركوا فى التصويت لهذا الاقتراح إلا أنهم أوقفوه فى مجلس الأعيان ووافق المجلس فى شهر تشرين الثانى على قرار بأكثرية ضعيفة يقضى بتأجيل تصديق المعاهدة حتى يضمن مصير اللاجئين .

فأدى فشل الوزراء إلى أزمة أخذت تتهدد الموقف ولو كان الحزبان المعتدل والدموقراطى على وفاق لأصبح من السهل التفاهم بينهما على حل قضية اللاجئين ، إلا أن الاختلاف بينهما كان خطراً يتناول المعنى والشكل . ورغم أن رئيس الوزراء رفض توقيف

الدستور عملا بتوصية بنيلى وريفيل فإنه أصدر إرادة ملكية بحل المجلس وإجراء انتخابات جديدة وليس فى هذا الأمر ما يمس الدستور ، إلا أن ما ورد فى الارادة من تعابير تهاجم الأكثرية وتهدد باستعمال الشدة إذا لم ينتخب مجلس ملائم ينافى روح الدستور ، فلم يبق أمام أحرار إيطاليه إلا الاحتفاظ بالدستور ، حقا إن السنوات العشر التى مرت بتاريخ بيمونته هى تاريخ إيطاليه وأن الموقف الحازم الذى وقفته بيمونته فى مفاوضات السلم بشأن الجنسية الإيطالية وثباتها فى القضية الدستورية جعلا الأمة الإيطاليه تنظر إليها نظرة إكبار وتعتبرها الدولة المجاهدة الباسلة ومما قاله (كافور) ، فى مفتتح خطابه فى أثناء المذاكرة حول قوانين (سيكاردى) ، « على بيمونته أن تجمع حولها جميع قوى إيطاليه الحية وأن تقود أمتنا نحو الغايات السامية التى خلقت لأجلها » . وكانت تورينو قبل هذا وطناً لأبطال الثورة الذين أقصوا عن بلادهم وقد زاد عددهم فى المدن الكبيرة حتى قيل إنهم بلغوا نحو خمس نفوسها ، وقد جلبوا لبيمونته حياة وحرية جديرتين وجهزوها بعدد من أقدر المفكرين المشبعين بالروح الإيطالية ، أمثال المؤرخين فارينى ولافارينا وسكيالوجيا والاقتصادى ميانى وتوماسيو وغيرهم من علماء وراء الطبيعة وفريق من أنبل أشراف اللمبارديين والدمواقراطيين أمثال كوردوفا وكريسبى من صقليه وكورانتى من ميلانو وانخرط فى الجيش ضباط من مودينه ولمبارديه

ومعلمين من جامعة نابولى وكان المجلس النيابى نفسه يحتوى على رجال سياسة من جميع أنحاء إيطاليه وكان البعض منهم فى الوزارة نفسها .

الارتجاع

طغت موجة من الارتجاع على جميع إيطاليه وكانت شديدة الوطأة فى روما ونابولى وخفيفة فى الأقطار الأخرى ، وأعطى الأفرنسيون روما إلى البابا الذى كان يعتقد بأن مستقبل الكنيسة يتوقف على استمرار تمتعه بالسلطة الزمنية ، وكانت صدمة تلك الثورة القومية قد أفزعته فما دخل روما حتى تخلى عن ميوله السابقة للحرية ليحيي عهد جرجوار بكل فظاعته ، وكان المتعصبون من رجال الدين الذين اجتذبوا البابا إلى جانبهم حريصين على الانتقام ومتلهفين للقضاء على كل ما تم فى السنوات الأخيرة الثلاث .

لقد احتج مائتان وستون مجلساً من مجالس النواحى بما فيها جميع المدن المهمة بين روما ووادى بو على استعادة السلطة الزمنية ، وأيقن وكلاء البابا فى الرومانى أن إعادة الحكومة فى الولايات لن تتم إلا بمساعدة الحامية النمسوية فحالما كان النمسويون ينسحبون من مدينة يسارع أهلها إلى ركز شعار الجمهورية ، وكان الأفرنسيون قد اطلعوا تماماً على هذه الحالة الروحية فأخذوا على عاتقهم حماية المؤسسات الحرة وكان أكثر الأعضاء اعتدالا فى وزارة روما وقتئذ

يريد ذلك ، وكان أودينو القائد الإفرنسى ، قد اتخذ أشد التدابير لمنع الجمهوريين من رفع رءوسهم واشترك المعتدلون فى الحكومة ومنحت جوازات السفر بلا عائق ، فحصل عليها آلاف من الناس بغية الخلوص من نقمة البابا . الأمر الذى أغضب الكرادلة الذين رافقوا البابا فى جايته ، وأخذ البابا يتذمر من تسامح الإفرنسيين ولينهم وأصبح بلاط جايته يتشوق للتخلص من أصدقائه ، ليلقى بنفسه فى أحضان النمسه العطوف ، ولما كان الإفرنسيون يريدون أن يجعلوا من البابا أداة مساومة ضد النمسا فقد سارعوا لجلبه إلى روما تحت إشراف جيشهم ، وأعلن أودينو إعادة سلطة البابا إليه فى ١٤ — تموز ، وفى نهاية الشهر خول أودينو سلطاته إلى الكرادلة الثلاثة الذين أطلق عليهم اللجنة الثلاثية الحمراء ، وقد كان بين مظالمها الشديدة وبين اعتدال سلطة مازينى فرقاً عظيما ، وظهرت للميدان شرطة البابا ومجلس التفتيش وأخلى سبيل مجرمين السانفيديست وحلت الرشوة فى المالية محل الإدارة الجمهورية الصالحة النزيهة ، وكان مونتانلى قد عرض على ممثلى الدول الكاثوليكية فى جايته مشروعاً وعد إياها فيه برعايته الحكومات المحلية ومساعدة العلمانيين على الاشتراك فى الوظائف بمقياس واسع والقيام بإصلاح الإدارة والقضاء وتأسيس مجلس دولة منتخب ولجنة استشارية خاصة بالشئون المالية ، فلما طلب منه الممثل الإفرنسى أن يمنح اللجنة المالية سلطة تنفيذية بدلا من سلطة استشارية وحثه على

عقد مجلس تمثيلى أجابه مونتانلى فوراً أن الحكم البرلمانى لا يتفق مع حرية البابا الروحية .

وكان لويس نابليون قد أظهر مقته بكتاب أرسله إلى زعيم (كولونيل) ، فى جيش الاحتلال الإفرنسى بتاريخ ١٨ — آب هاجم فيه الكرادلة قائلا : « إن الجمهورية الإفرنسية لم ترسل إلى روما جيشاً للقضاء على الحرية الإيطالية وإنما أرسلته لأجل تنظيم هذه الحرية وإنقاذها من الغلو » . وفى الكتاب يقول بضرورة صدور عفو عام وإقامة إدارة مدنية والأخذ بقانون نابليون المدنى مشيراً بمرارة إلى الجحود الذى أنسى البابا الوفاء بتعهداته نحو فرنسه ، وقد كتب لويس نابليون هذا المكتوب على مسئوليته ولم توافق الوزارة على إرساله إلا لاعتقادها بأنه لا ينشر ، ولما شاع خبر المكتوب اتخذه مونتانلى وسيلة ليعلن استقلاله وشكوكه فى نيات فرنسه ، وانسحب البابا إلى قصر ملك نابولى فى بورتيجى وأعلن للملاء أنه لن يعود إلى روما مالم تتجاهل فرنسه هذا المكتوب وتتركه طليقاً فى الإصلاحات التى يراها ضرورية ، وقال إن أقصى ما يتسامح به إرادة يعد بها بعفو غامض وإقامة مجلس دولة وتأليف لجنة مالية ومجالس إدارية فى الولايات وسلطة واسعة لمجالس النواحى وإصلاحات فى القضاء .

وكانت الاستثناءات التى وردت فى العفو تتضمن إما إنزال بعض العقوبات أو نفى جميع أعضاء المجلس التأسيسى وجميع أعضاء

الحكومات المؤقتة ومعظم رجال الجيش من ضباط الحرس الذين غض عنهم فى سنة ١٨٤٦ وكل من كان له ضلع فى الثورة . وقد اضطر آلاف من المواطنين المخلصين أن يقبلوا النفى والبؤس خيفة الاضطهاد ، وقد أظهرت السنوات التى تلت تفاهة قيمة الوعود بالإصلاح . ولقد عاد البابا فى ١٢ — نيسان إلى روما محفوفاً بالجنود الأجانب دون أن يلاقى أى حفاوة من شعبه وأخذ البابا يفخر بأن بلاطه مجرد من النفوذ الداخلى والخارجى وأنه يعاضد النظريات اللاهوتية الملائمة فى إيطالية وفرنسه وانجلتره وتشجيعها ويعهد للرهبان بالإشراف على التعليم ويضع عقائد جديدة ويقمع أية نزعة حرة . وإذا كانت البابوية قد أضاعت مركزها فى إيطاليه فإنها أصبحت قوية فى الخارج . وقد غدت الكنيسة تحت رحمة اليسوعيين بكل معنى الكلمة . ومع أن المعارضة الوطنية والحرة لم يقض عليها القضاء الكلى إلا أنها أصيبت بالعجز تدريجياً أمام الاقتراع الكاثوليكى العام فى الأمم اللاتينية الذى كان يفضل الاستبداد الروحى على الحرية ويضع الكنيسة فوق الوطن .

أما فى نابولى فبعد أن تحرر فرديناند من كل نفوذ أجنبى انطلق نحو استبداد لا مثيل له ، ومن ظريف ما يذكر أنه حمل المعلمين على أن يقولوا لتلاميذهم : « بأن الأمير فى حل من الحنث فى يمين الولاء للدستور ، إذا كان ذلك اليمين منافياً لمصلحة الدولة

العامة وأنه لا معنى لأى وعد يقطعه الأمير ويحدد فيه سيادته وسلطانه » ، وقد هنأه قيصر روسيه بصفته منقذ النظام الاجتماعى. وبعد أن لاقت منه صقليه عقاباً صارماً هوت على قدميه مضرجة بدمائها وقد أسرع فرديناند فمحا آثار الرق الحر الذى تم فى السنة المنصرمة . فوضع التعليم فى مخالب الإكليروس وألزم التلاميذ فى كل جامعة بأن ينتموا إلى هيئة روحية وسمح لليسوعيين بالعودة ، وأصبح الوزراء عبارة عن مستشارى الملك لا أكثر . وكاد الوزراء الجديدون رغم هذا أن يثقوا حيناً من الزمن بوعود فرديناند بأن يرعى الدستور ولكنه تعهد للنمسه بأن لا يفى بوعوده ولكى يسوغ ما بيته للدستور أرسل صنائعه للولايات للحصول على استدعاءات يلتمس فيها موقعوها إلغاء الدستور ، وقد حمل الكثيرون على التوقيعات قسراً . ومع أن رئيس أساقفة نابولى رفض التأثير فى رجاله رفضاً باتاً ورغم أن المجلس البلدى فى العاصمة امتنع عن التواقيع فالمؤامرة نجحت وأصبح فى اليد عدد من الاستدعاءآت يسوغ تعطيل الحياة الدستورية .

ولم تقنع جماعة الكاماريلا بكل ما تم وسارت فى نابولى مظاهرة معارضة ، لعل الشرطة هى التى دبرتها وانفجرت قنبلة بين الجماهير المتظاهرين وانتهز أذناب البلاط هذه الفرصة لتنظيم حركة الإرهاب فقبض على اثنين وثمانين من وجوه الأحرار بتهمة انتمائهم إلى جمعية وحدة إيطالية الثورية . وكانت المحاكمة

التى استمرت ثمانية أيام أشهر عبارة عن مهزلة قضائية زُوّرت فيها الكتب واختلقت التهم وأجبرت الشرطة الناس على الشهادات المزورة ولجأت إلى كل أساليب الضغط والإرهاب لإجبار المتهمين على الاعتراف وألقى المتهمون فى السجون مع المجرمين العاديين . ثم حكمت المحكمة على ثلاثة وعشرين منهم بالأشغال الشاقة المؤبدة أو الطويلة الأمد وكان بينهم بويرتو وسبتمبرينى . وأدهشت هذه المحاكمة الرأى العام حتى أنها جلبت شفقة أهل سانتالوقا للمضطهدين وأخذ الفقراء يبيعون الخبز لشراء الشموع ويشعلونها فى الكنائس للحصول على عناية القديسين . وقد احتج السفراء على مهازل تلك المحكمة وعلى سياسة البطش الظالمة فكان جواب فرديناند أنه أرسل المحكوم عليهم مكبلين بالحديد إلى سجون وينسيده وأيشجيه . وكان المستر جلادستون وقتئذ فى نابولى فاتصل بالمحكوم عليهم خفية واطلع على فظاعة ما يجرى وقد شرح ما شاهده من فظاعة بكتاب أرسله إلى الكونت وامبردن فى نيسان سنة ١٨٥١ ، ونشر الكتاب فى لندن فأحدث هزة اشمئزاز فى جميع أنحاء أوربا .

وظل الملك يزدرى بالرأى العام العالمى إذ قبض على ستة وأربعين عاملا لمقاومتهم المظاهرة التى قام بها الجمع الموالى للملك قبل ثلاث سنوات وحكم على أكثر من نصفهم بالأشغال الشاقة لثمانى عشر سنة . ثم تلا ذلك حبس ثلثمائة شخص ومن بينهم

عشرون نائبا ، ومما يلفت النظر أن شهادة شخص ، كان قد حكم عليه خمس مرات بالاحتيال ، كانت كافية لأدانة خمسة وعشرين متهما . وقد بلغ عدد المحكوم عليهم خلال سنوات الرجعية الأربع ما يربو على الاثنى عشر ألفاً ولم تنكر الحكومة أن عدد المسجونين السياسيين يبلغ أربعة آلاف . ويظن أن أربعين ألفاً من الناس قد وقفوا أمام المحاكم .

أما حركة الارتجاع فى طوسكانه فلم تكن شديدة الوطأة شأنها فى روما ونابولى بعدعودة البابا وفرديناند إليهما ، ذلك لأن الحركة التى عاكست الثورة كانت شعبية من جهة إذ انحاز إليها القرويون بحماسة وإخلاص ، ثم لأن الأحرار المعتدلين من جهة أخرى كانوا يرون فى عودة الدوق خلاصا من الدموقراطية الشديدة ومن الاحتلال النمسوى . وكان أحرار طوسكانه كما وصفهم ريكاسولى « صبيانا ليس لهم عقل سليم ولا خلق ولا دراية . إذ تركوا الثورة تتلاشى من الضعف واهتموا كثيراً بأنفسهم وبأموالهم » ثم بوغت الأعيان الذين ألفوا الهيئة الحكومية بنشوب ثورة فى ليفورنه وأدركوا أن خطر هذه الثورة قد تؤدى إلى الاحتلال النمسوى . فالتمسوا من فرنسه وانجلتره أن ترسلا أسطولهما لتهديد الحركة ، ولولا معارضة الدوق لقبلت فرنسة الدعوة ثم ولى الوجهاء وجوههم شطر بيمونته ؛ ولكن حكومة تورينو أجابت أنها لا توافق ما لم

تشترك حكومة نابولى فى الأمر وما لم يوافق الدوق الكبير نفسه على ذلك . وكان هذا سبق فارتبط بالنمسه واشترك فى وضع الخطة لاستيلاء راديتسكى على البلاد .

وكان حين قابله المندوبون من هيئة الحكومة فى جايته وعدهم باعادة الدستور وأكد لهم بأنه لا يساعد على حركة استيلاء من جانب النمسويين . بيد أن رسوله (سريستورى) الذى أوفده ممثلا عنه إلى فلورنسه كان يعلم بتواطؤ سيده مع النمسويين على الاحتلال ، وقد اجتاز لواء من قوات القائد النمسوى أسبر الحدود واحتل لوكا وتقدم نحو ليفورنه فقاومت المدينة الجمهورية مقاومة المستميت . ولما أعلن سريستورى أن النمسويين انما أتوا من دون رضاء الأمير غضب أسبر بسبب هذه الكذبة وأعلن بأنه لم يتحرك إلا بناء على رجاء الأمير نفسه ، وراح النمسويون يتهددون الأمير بالخلع إذا لم يسلك مسلكا مرضيا فلم ير بدا من الخضوع لهم ودخل أسبر فلورنسة فى ٢٥ ايار ، وفى اليوم ذاته تألفت وزارة جديدة ومارست أعمالها وكانت مؤلفة من المعتدلين الذين كان يظن أنهم راغبون فى إنقاذ الدستور ، وبينما كانوا يخافون أن تترك الحامية النمسوية المدينة كانوا من جهة أخرى يسعون إلى تخفيض قوتها إلى الحد الأدنى القرويين المضطهدين إلى العصابات التى كانت تنافس الحكومة فى أعمال العنف والإرهاب وخربوا إحدى

المدن وقبضو على المتفرجين فى إحدى صالات المراسح وافرغوا ما فى جيوبهم .

أما دوقيتا وادى بووهما مودينة وبارمة فظلتا كالسابق تابعتين للنمسة ، وقد عاد فرنسو الخامس إلى عرش مودينه وشارل لويس إلى عرش بارمه بمساعدة الجند النمسوى وأخذا يحكمان دوقيتهما بحماية هذا الجند . ولم يكن فرنسو مستبداً مثل أبيه ولم يكن بطبيعته كثير الميـل للظلم ، ومع أن الأحكام التى صدرت ضد الأحرار كانت كثيرة وقاسية ومع أنه انتقل بلا رحمة من القرويين فإنه لم يعاقب المتهمين السياسيين عقوبات شديدة إذا قورنت بالفظاعة النمسوية فى لمبارديه والرومانى ، فلذلك كانت الرجعية خفيفة الوطأة فى مودينه .

وعلى نقيض ذلك جاوز الاضطهاد فى بارمه جميع الحدود وبعد أن أعلن شارل لويس عدم مشروعية جميع الأعمال التى قامت بها الحـكومة الموقتة تنزل عن الملك لابنه شارل الثالث ، واعتبر الأمير الجديد رعيته ألعوبة لشهواته وظلمه فألغى الدستور الموعود وظلت الإدارة العرفيـة مستمرة وأغلقت الجامعات وفرضت الغرامات الباهظة على أعضاء الحـكومة الموقتة وأرغم الموظفون والأساتذة والتجار والقضاة على حلق لحاهم وشواربهم ولم يسمح للأطباء والمحامين بمزاولة مهنتهم ما لم يبرزوا شهادة تؤيد حسن سـلوكهم السياسى ، ولأجل معاقبة القرويين الذين اشتركوا بالثورة بأجمعهم

منعوا من تسريح أى خادم مالم يوافق عليه الموظف ، بيد أنه أبرز ما يميز استبداده الجنونى إحياءه عهد السوط تصاغرت أمامه المظالم التى ارتكبها ضباط راديتسكى ، فجلد ثلثمائة شخص على الملأ خلال الخمسة الأشهر الأولى من حكمه . جلد بعضهم لأنهم أنشدوا نشيداً وآخرون لأنهم حاولوا أن يسكروا ضابطاً نمسوياً وبعضهم لأنهم انتقدوا قرارات الدوق أو لأنهم حازوا نشرة حرة أو اقتنوا جريدة من تورينو ، وضرب الأمير بيده بعض المارة لأنهم لم يحيوه .

يزعم (فليكس فون شوار فتسبرج) رئيس الحكومة النمسوية أن الطليان لا يستحقون المؤسسات التمثيلية التى قد تقودهم إلى الاصطدام بالنمسة ذلك الاصطدام الذى كان رجال الدولة فى العهد الرجعى يسمونه الفوضى وكانوا يصرحون بأن الحرية البلدية والإدارية التى تتمثل فى اقتراع ضيق هى وحدها تلائم تقاليد إيطاليه وتسد حاجتها وأن دموقراطية تظل مقيدة بسلاسل الشرطة والتعليم الدينى هى التى تكفل وجود حكومة أبويه تعين على وفاء الشعب الأدبى والمادى . وكان شبح الاشتراكية والتشاؤم الأحمر يثير الفزع فى رجال الدولة فى بلد تجهل الاشتراكيـة والزيميه . وكانت هوة سحيقة تقذف بين الأحرار والكاثوليك ، فالنزعة الحرة فى نظر الكاثوليك تعنى ضياع الدين ثم إن كل ضربة تصيب البابويه ينعكس صداها فى الكنيسة وفى كل مايهم الكنيسة ويرى الكاثوليك أن النـاس إذا تخلوا عن السير وراء الكنيسة

تفسد أخلاقهم وكانو يخشون التفكير الحر ويعتقدون أن سلطة الأب المطلقة هو وحده الذى يحفظ الشبيبة من عدوى الحركات الشائنة ، المشؤومة . وقد يكون التعليم ضاراً إذا لم يشرف رجال الدين على التعليم الدينى وإذا لم يجبر التلاميذ على التمسك بفكرة دينية واحدة . فالنكاح المدنى مثلا يسهل الطلاق والطلاق يدنس الطقوس فالدولة يجب عليها أن تراعى الفضيلة وفوق ذلك كله يجب أن تبقى البابوية فى مقامها الرفيع مصدراً لكل سلطة . وبينما كان الكاثوليك فى إيطاليه يفكرون بما ذكرناه كان الكاثوليك فى العالم يعتبرون البابوية هى مؤسسة كاثوليكية أكثر مما هى إيطالية

وكان رجال الدولة فى العهد الرجعى يقولون أيضاً بهذه النظريات فالعلاقات الخارجية للاتحاد الكاثوليكى الملكى يجب أن تصبح حلفا جديداً ، وكانت موديته وبارمه قد جددتا الاتفاقية الخارجية مع النمسة التى فرضتها عليها بالقوة ، وكان فليكس فون شفارتسنبرج يرغب فى أن يوسع هذه الاتفاقية بحيث يحولها إلى حلف سياسى يجمع كل الدول الرجعية فى إيطالية ، فتدخل النمسة فيه باعتبارها مالكة إيالات إيطالية ويستهدف منح الحلف القيام بعمل مشترك لمكافحة الأحرار والصحافة وتأسيس جيش اتحادى وأن يتعهد المتعاقدون بأن يؤسسوا حرسا وطنيا وأن لا يمنحوا حق الاجتماع وأن لا يقوموا باصلاحات مالم توافق عليها جميع الدول الداخلة فى الحلف . وكان (بلداستيرونى) رئيس وزراء طوسكانه فى طليعة

الرجعيين بالفكرة . وأظهرت بارمه وروما استعدادهما للسير وراء بلد اسيرونى بيد أن فرنسوا دوقة مودينة لم يرحب بهذا المشروع أما ملك نابولى فرفض الانضمام إليه رفضاً باتا وكان رفضه هذا ضربة قاضية على المشروع وبما أن الاتفاق كان موجودا بالفعل بين النمسة والدوقيات فان الباب ظل مفتوحا لمن يريد أن يلجه . أما المواد الوحيدة التى روعيت فى المشروع باستثناء الاتحاد التجارى فهى الاتفاق البريدى بمنح النمسة حق فتح مخابرات الوطنيين واتفاقية ربط السكك الحديدية بين طوسكانه ولمبارديه والرومانى .

أما النظريات التى أيدها الاتفاق فكانت ذات نتائج ايجابية من الناحية الدينية وكانت الكنيسة الكاثوليكية ضرورة لازمة لرجال الدولة الذين أدركوا ما فى سلطة البابا من قوة يمتد سلطانها فى كل أنحاء البلاد بواسطة الرهبان ولكى تنال النمسة وطوسكانه حماية هذه السلطة فإنهما استعدا للتخلى عن الاستقلال الاكليروكسى وكانت طوسكانه أول من تنزلت عن هذا الحق . فوقع بلداسيرونى فى ٢٥ — نيسان ١٨٥١ اتفاقية تمنح روما جميع ما كانت تطلبه وبذلك ظفر الأساقفة بحرية المخابرة مع المقام البابوى ومنحت لهم سلطة الرقابة على جميع المؤلفات الدينية .

وسلكت النمسة الخطة نفسها وكانت الحكومة سنة ١٨٥٠ قد منحت الاساقفة حرية المخابرة مع روما ووعدت بأن تقدم السلطات المدنية مساعدتها للاكليروس فى المحافظة على الضبط

الدينى فى بعض الحالات واضحت الاتفاقية التى عقدت فى سنة ١٨٥٥ عهد خضوع تام للكنيسة إذ جعلت الحكومة التعليم الكاثوليكى تحت اشراف الأساقفة فى جميع المدارس الأولية والثانوية ومنحتهم حق الرقابة على المؤلفات اللاهوتية وحق القضاء فى جميع الشؤون الخاصة بالنكاح . واستمرت الكنيسة فى سيرها الظافر حتى تناول سلطانها أخيرا مودينه وبهذا يكون مشروع الحلف الرجعى العظيم قد أصاب بعض الفوز .

obeikandl.com

الفصل الحادى والعشرون

كافور

١٨٥٠ — ١٨٥١

حسب (بلدا سرونى) أن بيمونته ستنضم إلى الحلف لا محالة إذ كان يشك فى أنها تظل محافظة على مؤسساتها الحرة وبعد أن طوقتها الحركة الرجعية الظافرة . كان يجابه هذه الدولة الصغيرة التى تبلغ نفوسها خمسة ملايين اثنان وثلاثون مليونا من نفوس النمسه ويضاف إليهم قوى إيطالية الحكومية بأجمعها . وقد كان هم رجال الدولة فى فيينا أن يحملوا بيمونته على التخلى عن دستورها ، وكانت بيمونته ذاتها مصابة بعناصر الوهن والتفرقة ، فالا كليروس فى تورينو وبعض المناطق الريفية يسيطر على قسم كبير من الناحيتين حتى إذا ما حرضته روما استطاع أن يساعد الحزب النمسوى والحركة الرجعية . وكان الأميون فى الدولة ويبلغ عددهم ثلاثة ملايين ونصف مليون مرتعاً خصباً لاستغلال رجال الدين ، أما المثقفون من الأشراف فكان ميلهم للنمسة وروما أكثر من حبهم للوطن . إن هيبة الحكومة أصيبت فى حادثة نوفاره بضربة حالت شدتها دون أن تستعيد مكانتها بسرعة ، أما الطبقة المنحطة

من اللاجئين فقد جلبت جرائم من الشغب ساريه لولا تقاليد البلاد فى رعاية القوانين لأدّت إلى اضطرابات اجتماعيـة خطيرة وكان الحصاد رديئاً . وأخذ الحلف النمسوى يهدد تجارة بيمونته ويسد أبواب نصف إيطالية فى وجهها . أما البلاد الأجنبية بما فيها فرنسه وانجلتره فـكانت لا تعطف عليهـا إلا قليلاً ، ناهيك بالرجعيين فى أوروبا الذين كانوا يعتبرونها خطراً يهدد سلم القارة ؛ على أن فى سياسة الحـكومة نفسها ما يكفى لخلق الصعوبات . فحكومة بيمونته حذت حـذو حكومتى فينا ونابولى بإظهار سخطها على الثورة وصارت تدعو إلى احترام حدود جاراتها وتجهر بأنه ليس لها أى مطمع فى تجاوز حـدودها ولم يكن والحالة هذه أمام دازجيلو طريق آخر ، وأصبح من المتعسر استئناف سياسة ١٨٤٨ — ١٨٤٩ من دون مساندة فرنسية وكانت حكومة فرنسه تبذل كل نفوذها لإبقاء بيمونته ساكنة ولـكبت ميولها ومطامحها ، على أن الحـكومة كانت تعلم جيداً أن الفرصـة إذا حانت للتقدم فإن احترام الحدود يصبح مجرد ألفاظ ليس إلا . وكانت المعارضة حينئذ ضعيفة جداً لا تستطيع أن تعمـل أكثر من مظاهرة وتأييد منهج دازجيلو . وكان المجلس قبل صدور الإرادة بحله قد أبدى رأيه الصريح فى استنـكار سياسة التساهل مع النمسه والحرص على صيانة شرف الراية الإيطالية ، واستمر على المطالبة بمنح جنسية إلى الإيطاليين المولودين فى بلاد بيمونته ، ومن

الراجح أن الدموقراطيين لم يكونوا يمثلون مطلقاً شعور الأكثرية الحقيقي فى البلاد ، فقد كانوا أقوياء بين الطبقة المتوسطة كالتجار والصناع والموظفين فى النواحى . بينما كان أكثر الناخبين من المحافظين . وكان المرسوم الذى استصدره مونكالييرى بالحل من جملة الأسباب التى ضمنت للبرهان الجديد أكثرية محافظة .

وقد جاء انتخاب المائتين والأربعة أعضاء فى المجلس النيابى البيمونتى جوابا قاطعاً يفند التهمة الموجهة إلى الطليان بأنهم غير جديرين بالمؤسسات التمثيلية إذ ظفر المجلس بنواب رزينين أذكياء وطنيين . ولم يؤلف الأعضاء أحزاباً متبلورة بل كان الأعضاء يتنقلون من فئة إلى فئة أخرى ، وكانت أكثرية الوزارة من عناصر لاتضامن بينها ، وكان يجلس فى أقصى اليمين عدد ضئيل من الرجعيين انتخبوا من أياله صافويه وكانوا قدماء فى مجلس الأعيان ولو أتيحت لهم فرصة لضربوا بالدستور عرض الحائط ، وكانوا يدعون بأن من واجب الحكومة الكاثوليكية أن تخضع للكنيسة ويعارضون بشدة كل سياسة تقدمية ويسعون إلى تخفيض قوة الجيش ، وكانوا يتهددون قائلين : (إذا كان البيمونتيون إيطاليين فيجب إذن أن تكون جبال الألب هى الحد الفاصل بين فرنسه وإيطاليه) إلا أنهم كانوا يسندون الحكومة حين مهاجمة الدموقراطيين إياها وكانوا يتلقون الأوامر من روما ومن فينا أحياناً ويجلس فى اليمين نواب أكثرهم من الدستوريين المعتدلين الذين

قبلوا الدستور مخلصين له واشتركوا فى الحرب وعطفوا على فكرة الاستقلال الإيطالى ، بيد أنهم كانوا يقاومون كل حركة تهدد استقلال بيمونته الذاتى أو يؤدى إلى نقل العاصمة من تورينو إلى مدينة أخرى ، وكانوا يؤلفون حزبا محافظاً حقيقياً ويخشون جانب الدموقراطيين وينزعون إلى تأييد امتيازات الكنيسة وحقوق الملك وكان دازجيلو وبالبو دبيندللى ينتمون إليهم ، وظل كافور بطلهم القوى إلى أن رأى صعوبة السير معهم فى القضايا الاكليريكية والمالية ، وكان ريفل رئيسهم الحقيقى وهو من مدينة نيس وقد تولى وزارة المالية من سنة ١٨٤٤ إلى ١٨٤٨ وكان أشد رجال المدرسة القديمة محافظة .

أما حزب اليسار فكان قويا فى المجلس السابق ، أما فى المجلس الجديد فظفر بقوة كافية تمكنه أحياناً من التأثير فى الحكومة وتوجيهها ، لكنه كان مشتتاً وغير متجانس ، ففيه الأحرار المعتدلون ، وهؤلاء كانوا فيما عدا القضايا الأكليريكية لا يختلفون عن المعتدلين فى اليمين إلا قليلا ، وفيه المتطرفون الاشتراكيون المعتدلون . وكانت سياسته الخارجية هى نفس السياسة التى روعيت زمن الحرب وأبى أن يبدلها رغم الظروف ، ولكن هذا الحزب كان خير عضد للحكومة فى نزاعها مع روما ؛ وأما منهجه الاجتماعى فلم يكن على تفاهته يخلو من قيمة ، ومهما كانت معارضته قوية وهى معارضة لم يسر فيها على منهج واحد فإنه لم يكن يرغب فى إسقاطها

لأنه من الضعف بحيث لا يستطيع أن يتولى الحكم فضلا عن أن سقوط الحكومة قد يؤدى إلى أن يتولى ريفل الحكم .

أما نواب أقصى اليسار فيتألفون من ثلاثين نائباً وقد أيدوا دازجيلو بعض التأييد واعتقدوا بإخلاص الملك للدستور ثم أخذوا يثقون شيئاً فشيئاً بنزعة كافور الحرة (الليبرا ليزم) حتى أنهم اعتبروا أن اشتراكه فى الوزارة ضمين لسياسة الرقى والتقدم ؛ ثم انقلب موقفهم الودى نحو الوزارة إلى تأييد تام ، وهكذا تألف بالتدريج حزب وسط اليسار الذى كان يعتنق معظم آراء جماعة اليسار ، إلا أنه يختلف عنها لأسباب انتهازية . وكان من حيث العدد ضعيفاً لا يتجاوز العشرين ، لكن الكثيرين من أعضائه كانوا من أقدر رجال المجلس ولم يكن زعيمه رتازى ذلك الرجل المتطرف فى مبادئه كما كان يشاع عنه فى أوربا المحافظة بأنه لم يكن دموقراطياً بالمعنى المطلوب ، بله تدل جميع مظاهره على أنه كان من المعتدلين الأحرار . ولم يكن قوياً متصلباً حتى أنه كثيراً ما كان يفسح لحزبه مجال الكلام فيما يخالف آراءه هو ، وقد اعتاد أن يتغاضى عن أخطاء الملوك الأمر الذى جعله صديق الملك الحميم ؛ ومع أنه كان من القوميين إلا أنه لم يكن يقول بتوسيع حدود بيمونته إلى أبعد من وادى (بو) ، ولم يكن يؤمن بوحدة إيطالية وكان يشعر بضرورة وجود حكومة قوية ويدرك صعوبة إنجاز الأعمال بلا أكثرية منظمة فى المجلس ، وكان ذا موهبة برلمانية

تجعله يتساهل ، وأحياناً يتخلى إلى حد ما عن منهجه السياسى لأجل ضمان استقرار سياسة حرة معتدلة لأن بيمونته أحوج ما تكون إلى سياسة حرة معتدلة ثابتة . وكان كافور يشاطره هذا الاقتناع .

وأسفرت الانتخابات فى نهاية سنة ١٨٤٩ عن ظفر دازجيلو بأكثرية ساحقة فى المجلس فأصبح بذلك قادراً على تنفيذ سياسته . وكان دازجيلو هذا ذائع الصيت فى جميع إيطاليه دلت شهرته أبعد من ذلك فى الخارج . إذا كان يمثل تراث الحكومة الدستورية فى بيمونته ، ولكنه كانت تعوزه الصلابة التى يجب أن تتوفر فى الزعيم ، وجعلته حوادث سنتى ١٨٤٨ — ١٨٤٩ يخاف الدموقراطية كثيراً ، ولا ريب فى أن الذين انتقدوا عدم اهتمامه بمصير روما والبندقية كانوا على حق ، ومع أنه اعتزم المقاومة حتى النفس الأخير إذا هاجمت النمسة ، ورغم تقديره بمكانة بيمونته فى إيطاليه فإنه لم يتخذ أى تدبير لتتأهب المملكة إلى تقدم جديد . وكانت سياسته سلبية لا ترمى إلى أكثر من الاحتفاظ بكرامة الأمة واطلاع الناس على أن الحكم الدستورى لا ينافى النظام بأى صورة والعمل على كسب احترام الأمم الأخرى . ولا شك فى أن هذه السياسة لم تكن جبارة تكفى كفاية عظيمة ولعل ذلك هو سر نجاحها . وفى الواقع أن جل ما كانت تحتاج إليه بيمونته فى ذلك الحين الاهتمام لتعيش بسكون وهدوء وبذلك

أنجز داز جيلو نبوته القائلة «سيحين الزمن الذى يكون — النجاح فيه حليف أكثر الناس نزاهة لا أشدهم قوة أو أعظمهم قدرة وكفاية ، ولكن داز جليو فشل فى سياسته الداخلية فبينما كانت الجرائد الا كليركية تتمتع بحصانة واسعة ، كانت الشرطة تزعج الجرائد المتطرفة ، ولما هاجم بعض الضباط دار إحدى الجرائد لم يتخذ فى حقهم أى تدبير . أما الاجتماعات العامة فقد منعت وكان يميل إلى طرد اللاجئين الكثيرى الشغب كما أنه لم يسع فى جعل المؤسسات البلاد تتمشى مع روح الدستور وإصلاح حالتها العامة وتطهير الإدارة من الفساد الطارئ عليها إلا يسيرا .

وعلى الرغم من حرصه الشديد على الاحتفاظ بالسكون فقد تعذر عليه أن يتحاشى النزاع مع روما . وتفاصيل ذلك أن بيمونته كانت متأخرة كثيراً فى شؤون التشريع الا كليريكى . فالكنيسة كانت لا تزال تحتفظ بامتيازات الغيت منذ مدة طويلة فى نابولى وطوسكانة وموديتة وفى الامبراطورية النمسوية فكانت المحاكم الدينية تنظر فى جميع الأمور المدنية والجنائية وكان لأغلب الكنائس حق الحمى ، فاذا استطاع المجرم أن يلتجىء إليها نجا من حكم القانون . وكان الأساقفة يشرفون على المؤسسات الخيرية وعلى قسم من المدارس وقد منحهم الدستور نفسه حق منح تداول الكتب المقدسة والمؤلفات اللاهوتية التى يحضرونها هم ولم يكن فى الإمكان عقد النكاح إلا بواسطة الراهب .

وبوجود الدستور يتعذر إبقاء مثل هذه الامتيازات لأنها تخل بشروطه الأساسية ولقد أدركت أول — وزارة دستورية أن الاتفاقية مع روما التى تثبت امتيازات الكنيسة يجب معالجتها من جديد ، وكان روسمينى قد أوفد بدون جدوى للمفاوضة على شروط أحسن وكان أمام الإصلاحيين سياستان فكافور يرى اجتناب إرهاق الكنيسة بأملاكها ونظامها الداخلى ومقابلة التعصب بالتسامح وإلغاء إشراف الحكومة الضئيل المنصوص عليه فى الاتفاقية القديمة ، وكان يعتقد بأن الكنيسة سوف تتخلى عن السياسة إذا سلمت من العقبات المزعجة بيد أن أكثرية الأحرار تجنبت القيام بتجربة كانت تبدو خطرة كثيرة على شعب ذى ثقافة قليلة ولا يتمتع باستقلاله الروحى إلا قليلا حيث كانت الكنيسة تتوعد بأن تصبح قوة سياسية عظيمة تستطيع أن ترغم المؤسسة الدستورية وأن تكون خطراً دائماً لحكومة حرة ومع ذلك كان الحزبان قد اتفقا على إلغاء المحاكم الاكليركية ، وتظاهر رئيس أساقفة (تورينو) فرنسونى بمقاومة كل إصلاح وكان زميله أسقف (آستى) قد اتهم بأمور شائنة ، فهرب أمام تهديد الجماهير وأرسل دازجيلو فى نهاية سنة ١٨٤٩ القاضى سكاردى وهو أحد المعتدلين المعروف بنزاهتهم إلى روما يطلب تبديل فرانسونى وأسقف آستى والتساهل فى بعض ما يتعلق بتنفيذ الاتفاقية ولكن — ما أسرع ما عاد دون أن يحصل على شىء سوى أن انتوتللى عرض

عليه اقتراحات يتعذر قبولها ، ودخل سكاردى الوزارة فعرض فى بداية سنة ١٨٥٠ لائحة باقتراحاته الشهيرة وهى تتلخص بالغاء المحاكم الاكليركية وإلغاء حق الحمى واتخاذ العقوبات بحق المجرمين من رجال الدين على السواء واقتراحات أخرى كما أنها تتضمن وعدا من الحكومة بتقديم لائحة تقضى بمشروعية النكاح المدنى وقاوم نواب اليمين هذه اللائحة بحجة أن موافقة روما على أى تعديلات فى قانون الاكليريكى لابد منها ولكن كان على الحكومه أن تختار بين الاتفاق مع البابا والدستور وطبيعى أن تختار الثانى وكان الفريق الأكثر اعتدالاً فى اليمين وجميع أعضاء اليسار بجانبها واندفع الرأى العام فى تورينو فى تأييدها وبلغت نقمته على الرهبان حداً اضطرت معه الحكومة إلى استعمال القوة لمنع إحدى المظاهرات العدائية ، وقد مر قانون سكاردى من المجلس بعد أن أقره بمائة وثلاثين صوتاً ضد ستة وعشرين صوتاً ؛ ثم مر من مجلس الأعيان بتأييد أكثرية اثنين ضد واحد ، وأبت روما الاعتراف بما جرى ووقف البابا من هذا الاختلاف موقفاً غير معقول ، إذ رفض أن يمنح حقاً منح مثله الأمم الكاثوليكية جميعها ، ذلك لأنه يكره هذه الدولة الإيطالية الحرة الوحيدة ويخشاها كثيراً وغادر سفير البابا تورينو ورأى الأساقفة شبح الثورة وأصدر فرانسونى كتاباً يأمر به الاكليروس بأن لا يكترثوا للقوانين الجديدة وأن لا يحضروا أمام المحاكم المدنية إلا مكرهين ، ولما اتهم

بالتحريض على عدم الإطاعة وطلب منه الحضور أمام المحكمة امتنع فحكم عليه غيابياً بالسجن شهراً واحداً .

وعلى أثر ذلك اشتد سخط رجال الدين حتى أنهم تهددوا بالحرمان كل من اشترك فى وضع القانون الجديد . ولما أصبح (ساتناروزا) وزير الزراعة على حافة الموت رفض الراهب زيارته فمات من دون تزكية . ثم رفض الإكليروس بتحريض من فرانسونى القيام بمراسيم دفنه مما آثار سخط الناس حتى كان جناز ساتناروزا مظاهرة وطنية عظيمة . وقبضت الحكومة على فرانسونى واعتقلته فى قلعة (فنسترللا) وأخذت فرنسه تضغط على دازجيلو بشده للنزول عند إرادة روما . وجرت فى الصيف محاولتان للتفاهم ففشلتا ذلك لأن أنتوللى لا يريد أن يرجع عن رأيه القائل بأنه لا يجوز خرق الاتفاقية من دون رضاء الفريقين هذا من ناحية ولأن الرأى العام فى بيمونته كان يطالب بإلحاح باتخاذ تدابير جديدة ضد الكنيسة من ناحية أخرى . وقد ألغيت زكاة ساردينه مقابل تعويض . وطالما ألجأ المجلس بشدة اندفاعه هذا الكبير الحكومة إلى السير فى طريق الشدة . وأصر حزب اليسار على الحكومة أن تفرض حقوقها فى الإشراف على كراسى تدريس اللاهوت فى الجامعات للقضاء على مهاجمة الأساتذة للدستور ، ولكن كافور كان مخالفاً لكل تحديد يمس حرية التدريس وبناء على تدخله تأجلت المذاكرة حول القانون فانتهز البابا هذه الفرصة

للانتقام من جامعة تورينو فحرم (نوئيز) أستاذ اللاهوت فيها لأنه أيد حقوق الدولة فى الإشراف على الشؤون الاكليريكية . وربما كانت الحكومة تميل إلى التساهل فى هذه القضية وفى بعض القضايا الأخرى المختلف فيها فقد تأجل البحث فى القضايا الخطيرة كالنكاح المدنى وموازنة الإكليروس . ولما ظهر للعيان أن اختلافاً شديد الخطورة مجهول العواقب يوشك أن يقع تجلت الحاجة إلى وجود يد أقوى من يد دازجيلو يستطيع أن يواجه الأزمة .

وكانت شهرة كافور المتزايدة قد طغت على شهرة دازجيلو . لم تكن بداية حياة كافور البرلمانية موفقة . فقد جعلت علاقاته الارستقراطية والآراء الرجعية التى كانت تعزى إليه غير محبوب من الشعب . بيد أنه استطاع بعد ذلك أن يفرض شخصيته وأن يوطد نفوذه فدل على متانة خارقة وإرادة صلبة وجرأة نادرة وذاكرة متوقدة ومقدرة على العمل فائقة . وكانت خطاباته ذات تأثير فى المجلس النيابى وكان متحلياً بكل ما يقتضى لجلب ثقة الوسط من الناس وكان تقريباً يرقب الرأى العام ويتحاشى الانسياق فى تيار لا يلائم ظروف الزمن العملية إلا فيما ندر ، وكانت سياسته سياسة حزم بكل معنى الكلمة . وكان يقول : « إن على ايطاليه أن تنشئ نفسها بالحرية ولا فائدة من إنشائها عن غير طريق الحرية » .

وكان قانعاً كل القناعة بأن الشعب سيدرك الحقيقة عاجلا

أو آجلا ، ولذلك فإنه كان يرفض تقييد حرية الصحافة ويتذمر من إعانة الحكومة جرائدها .

وقد طبق المبادىء الحرة نفسها فى معالجة قضايا الكنيسة والدولة ، فكان يعتقد أن الكنيسة المصونة من سيطرة الحكومة تستطيع أن تلعب دوراً خصباً فى التطور الاجتماعى . ولو خير فى الأمر لترك الكنيسة تحتفظ بكامل حريتها فى أنظمتها الخاصة وفى طقوسها وكان شعاره فى ذلك (كنيسة حرة فى دولة حرة) . وكان يتوقع أن يرى النمسويين يوماً ما مطرودين من إيطاليه والسلطة الزمنية ملغاة ، ومما لا شك فيه بأنه كان يؤمن بإيطاليه دولة حرة موحدة ولكنه ظل فى هذه القضية شأنه فى القضايا الأخرى ذلك الانتهازى الذى يترقب الفرص ولا يتقيد بأية طريقة ، وكان هدفه وقتئذ السمى لرفاه بيمونته واستخدام نفوذه فى مصلحة البلاد الإيطالية الأخرى إذا ما سنحت الفرصة . ولم يكن فى البدء ينتمى إلى حزب ما ولكنه زج نفسه فى اتجاه حر بتأثير الحماسة سنة ١٨٤٨ ثم جعله الشطط الذى حدث فى الشتاء الذى تلا تلك السنة من المحافظين ، ولكنه أيقن على أثر الرجعية التى عقبت نوفاره أن الاستبداد أشد خطراً من تهويش حكم الدهماء . وحركت نقمته من ضعف دازجيلو ساكن نزغته الحرة وجعلته يقدمها على كل شىء . وقد قال بضرورة تأليف حكومى قوى كما ارتأى رتازى وسمى كثيراً قبل صدور الإرادة بحل المجلس فى التأليف بين

الأحزاب وكان يفضل الاستناد إلى اليمين إلا أنه رأى صعوبة الاتفاق مع قسمه المتطرف فى القضايا الدينية والتجارية . وقد شرع يتهدد الوزارة بلطف فى خطبه بالمجلس مما جعلها تسير بحذر فى الإصلاح وشعر الوزراء بحاجتهم إلى رجل قوى و بتأثير من القائد لامارمورا والملك عين فى ١١ تشرين الأول ١٨٥٠ فى وزارة الزراعة والتجارة الشاغرة .

وقد تنبأ الملك بأن كافور سرعان ما يجعل الوزراء طوع إرادته ويصبح الرئيس الفعلى بينهم . وتنفس الأحرار الصعداء بتعيينه واعتبروه بشيراً فى رغبة الوزارة فى القيام بإصلاحات إكليريكية أخرى . بيد أن كافور انصرف إلى الأمور الاقتصادية حتى أنه شرع قبل أن يصبح وزيراً للمالية فى نيسان بتنفيذ سياسته فى حرية التجارة إلى حد بعيد ، وكان اشترع قوانين لتنظيم الجمعيات باسم النقابات ؛ والتسليف الزراعى ومشاريع التعليم الزراعى وإصلاحات البريد والسكك الحديدية بعض ما تم على يديه فى سبيل رقى بيمونته وإعانة تجارتها ، وقد ألغيت الضرائب الإقطاعية التى كانت لا تزال تجبى فى بعض المناطق وأبطل حق البلديات فى تقدير سعر الخبز . بيد أن جميع هذه المشاريع ذات شأن إذا قورنت بما قام فيه من إصلاحات عظيمة فى الشؤون المالية . وكان كافور يرى أن تحسين المالية وتنظيمها وتقويتها أمور جوهرية تمس حياة الدولة ووجودها ولا سيما أن الخزينة كانت مثقلة بسبب الغرامات الحربية

الواجب دفعها إلى النمسة ونفقات الجيش والإعانات التى تدفع إلى السكك الحديدية ، وقد بلغ عجز ميزانية سنة ١٨٥١ ستين مليوناً من الليرات[1] وزادت نسبة الضرائب ثلاثين فى المائة وتجاوزت فائدة الديون من مليونين إلى ثلاثين مليون ليره سنة ١٨٥٢ فاقتضى بعد النظر للأخذ بسياسة الاقتصاد من النفقات وذلك يتطلب وجود مالى جرىء يستطيع أن يطلب إلى البلاد بأن تستعد لزيادة ديونها .

وإذا كانت بيمونته تريد أن تستعد لحرب جديدة فينبغى لها الاحتفاظ بالجيش وتنظيم الأسطول وصرف نفقات كبيرة لإقامة الحصون كما أنه يجب مد سكك حديدية لإنماء صناعتها وفتح نفق عبر جبال الألبه وقد أدت هذه الأعمال إلى تضخم فى القروض وزيادة فى الضرائب ، فرأى كافور أنه يجب أن يكون للبلاد من القدرة ما تستطيع بها أن تجابه هذه التكاليف الجديدة فلا يتسنى لهـا ذلك إلا بزيادة مصادر الثروة فيها ، وقد اعتقد أنه يستطيع أن يجعل الصناعة والتجارة كفيلتين بتحقيق تلك القدرة وذلك بالاخذ بمبدأ حرية التجارة قدر الإمكان بيد أنه لاحظ بأن الرأى العام لم يكن متهيئاً ليتقبل مبدأ حرية التجارة فى أوسع معانيه فقصر عمله على عقـد اتفاقيات تجاريه ، وقد استطاع ، أخيراً بالاتفاقيات التى عقدها مع فرنسه أولا ومع بلجيكه وانجلتره بعد ذلك ثم مع سويسره والاتحاد الجمركى البرلمانى والنمسه نفسها ،

(١) الليره الإيطالية تعادل الافرنك .

أن يفخر بعد بضع سنوات بأن التعريفة الجمركية البيمونتية أكثر سخاء من تعريفات القارة ، وظهرت أول نتائجها الاقتصادية فكاد التهريب يزول من الوجود ، ولم تصب الجمارك بأية خسارة فى الواردات واندفعت بيمونته فى طريق التقدم التجارى السريع حتى أصبحت مخزناً لحرير إيطاليه وأخذ كافور بعد ذلك يحلم بإقامة حلف بين بيمونته والدول الغربية ليجابه به الحلف الاستبدادى الشرقى التى عقدته النمسا مع أمراء إيطاليه .